الإبتلاء

تأليف فضيلة الشيخ

سيد عبد العاطي

إمام وخطيب الجمعية الإسلامية

بالسارلاند - ساربروكن - ألمانيا

الابتلاء

فى حياة الأنبياء والصالحين

جمع وترتيب

سيد عبد العاطى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه ونستهديه ونشكره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فهو المهتدى، ومَنْ يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، المُلكُ ملكه، والكون كونه والعبد عبده، والأمر أمره، ولا إله غيره.

وأشهد إنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه، أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به من بعد الضلالة، وعلَّم به من بعد الجهالة، وعرَّف به من بعد النَّكارة، جمع به بين قلوب متفرقة، وبين أهواءٍ متشتتة، ففتح به أعينًا عُميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا.

أشهد أنه بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله تعالى به الغمة، وتركنا على محجةٍ بيضاء، ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك فاللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهَدْى . . هَدىُ محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

ثم أما بعد:-

أحبتي فى الله. . ويا أتباع الحبيب محمد عليه الصلاة وأزكى السلام مرحبًا بكم عبر هذه الصفحات وفي البداية أحييكم بتحية الإسلام فأقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم أُثَنِّى الكلام ببيان سبب كتابتي لهذا الموضوع والذي يحمل عنوان «نداء لأصحاب البلاء» الذي أسأل الله أن يكون خالصًا لوجهه الكريم وعونًا لي ولكم على السير في طريق أصحاب الرسالات. . طريق أصحاب الدعوات طريق النبي محمد - ﷺ وصحبه الكرام. . وأن يكون هذا الموضوع سببًا في استجلاب عطاء الله تعالى وفضله يوم لا ينفع مالٌ ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فسبب كتابتي لهذه الصفات أنني نظرتُ بعمق لأحوال المسلمين في هذا الزمان فرأيت عجبًا عجابًا. . رأيت الدعاء أصبح لغير الله عند كثير من الناس إلا مَنْ رحم ربي عز وجل. . رأيت الشكاية لغير الله. . شكاية الناس للناس. . فهذا يشكو الفقر لمخلوق مثله. . وهذا يشكو المرض. . وهذا يشكو مصيبته لمن لا يملك ردَّهَا أو دفعها عن نفسه من البشر. . وهذا يشكو كربه لمخلوق مثله. . وهذا مبتلى يشكو بلواه لمن لا يملكون دفعها هذا وإن كان سؤال الناس في الأشياء التي يقدرون عليها أمرًا مباحًا . . ولكن بالنسبة للأشياء التي لا يقدرون عليها فغير مباح. . إنما اللجوء يكون لمن يملك وهو الله القادر:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

لا إله إلا الله ولا يملك كشف الضر إلا الله.. من أجل ذلك آثرت أن أتوجه بهذا النداء لكل مصاب لأبين «الحكمة من الابتلاء» والواجب على كل مبتلى وذلك من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

انطلاقًا من قول الرسول الكريم ﷺ: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنتي»(١) وقوله ﷺ أيضًا في جزءٍ من حديث خرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح: «... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(٢)

وانطلاقًا من قول الله تعالى فى كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣].

وكما قال أحد الدعاة العاملين لهذا الدين (٣): لقد كان من الواجب ألا يتحدث في هذا الموضوع الجليل إلا من توفرت لديه الأهلية علمًا وعملًا، ولكن قد يتحرك المرءُ للحديث لا من منطلق شعوره بالأهلية وإنما من منطلق شعوره بالمسئولية. وهذا ما تؤصله وتقرره القاعدة الأصولية:

«مَنْ عَدمَ الماءَ تيمَّمَ بالصعيد»

فالله أسأل أن يجعل سرنا أحسن من علانيتنا، وأن يغفر ذنوبنا، ويستر عيوبنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الممتحنة: ٥].

هذا وقد رتبت موضوعي على النحو التالي:-

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٣) رسالة الثبات حتى الممات للداعية: محمد حسان.

* أولًا - المقدمة.

* ثانياً - الحكمة من الابتلاء.

* ثالثًا - أنبياء الله والابتلاء.

* رابعاً - نماذج من السلف والابتلاء.

* خامسًا - قصة وعبرة.

* سادسًا - قصيدة.

* سابعًا - المراجع.

* ثامنًا - الفهرس.

هذا وقد بذلت جهدي بتوفيق الله تعالى لمعالجة هذا الموضوع في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة. لكن لا أدَّعى العصمة من الخطأ، بل أقول ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فإن يك صوابًا فمن الله وحده، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان» والله أسأل الإخلاص والتوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه وأدعوه أن ينفع به إخواني أصحاب البلاء وأن يكون تسليةً لهم إنه سميع مجيب. . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

راجي عفو ربه

أبو أحمد سيد بن عبد العاطى بن محمد

الفصل الأول

حكمة الابتلاء

في الكتاب والسُّنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

* * *

الفصل الأول

حكمة الابتلاء

أيها المبتلى أقبل، أيها المصاب انتظر، أيها المكروب تمهل، وأنت أيها المريض على رسلك.

اعلموا جميعًا أنَّ الحياة الدنيا ألم يخفيه أمل، وأمل يحققه عمل، وعمل ينهيه أجل، وبعد ذلك يجزى كل امرئ بما فعل، إنْ كان خيرًا حصد الكرامة، وإن كان شرًّا حصد الندامة والعياذ بالله.

حقا كما قال أهل العلم والمعرفة: إنَّ الحياةَ الدنيا أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء، قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

لقد اقتضت حكمة الرحمن الرحيم أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وامتحان وابتلاء لتمحيص القلوب واستخراج جميع أنواع العبودية لله عز وجل من القلوب والنفوس والأبدان، قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وما دام الأمر كذلك فهيا معى لحظات كيْ نتعرف على بعض الحكَم الجلية للبلاء حتى نستقبله برضا.. وما سوف نذكره من حكم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فأنَّى لمثلي حصر حِكَم الابتلاء من الكتاب والسُّنة ولكنني سوف أطوِّفُ بكم لأبين القليل من الكثير بفضل الله ومنته من حِكَم الابتلاء في القرآن الكريم والسُّنة النبوية الصحيحة لتكون تسليةَ لأصحاب البلاء ورَوحًا وريحانًا لقلوبهم.. فهيا بنا.

وقبل أن نقف بعون الله تعالى مع بعض هذه الحكم نسمع إلى رأي إمام

جليل فى الابتلاء . . هذا الإمام هو الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - عند ما سأله رجل فقال له: يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يبتلى؟

فقال الإمام الشافعي - رضي الله عنه-: «لا يُمكَّن حتى يُبتلى، فإنَّ الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنْ يخلص من الألم ألبتة»[١].

فانظر رحمني الله وإياك إلى أسباب التمكين حتى لا تجزع ولا تسخط من قضاء الله تعالى.

وإليك الآن بعض حِكَم الابتلاء:-

الحكمة الأولى.. مغفرة الذنوب:-

فمن الحكم العظيمة للابتلاء مغفرة الذنوب وتطهير النفس من الآثام كما يطهُر الثوب الأبيض من الدنس وذلك أنَّ النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جَيدُهُ من رديئه حتى يفتن في كِير الامتحان

❁ فعن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما:

عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غمٍّ حتى الشوكة يشاكُها إلَّا كفَّرَ الله بها من خطاياه»[٢]

والوصب: المرض.

❁ وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يُوعَكُ فقلت يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا - قال: أجل إنى أوعك كما يوعَكُ رجلان منكم» قلت: ذلك أنَّ لك أجريْنِ؟

قال: أجل ذلك كذلك ما مِنْ مسلم يُصيبُه أذى شوكةٌ فما فوقها إلَّا كَفَّر اللهُ بها سيئاتِهِ، وحُطت عنه ذُنوبُهُ كما تحطُّ الشجرة ورقها»[٣]

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٨٣ .
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

والوعْك: مغث الحمى وقيل الحمى.

فما أعظمها من حكمة وما أحوجنا جميعًا إلى مغفرة الذنوب!

وفي السنة المطهرة الكثير والكثير من الأحاديث التي توضح هذه الحِكمة العظيمة للابتلاء ألا وهي مغفرة الذنوب وتطهير النفس من الأدران واستخراج العبودية لله تعالى.

❁ فقد سُئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض ماعليه خطيئة»(١) فاختلاف أنصبة الناس من الجهد والتبعة والهموم الكبيرة يعود إلى طاقتهم في التحمل والثبات.

❁ وورد أيضًا أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتسب الحمى، فكره منها هذا المسلك وقال لها مواسيًا:

«إنها - أي الحمى - تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكير خبث الحديد»(٢) فالإسلام يحمد لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم وصبرهم وحسن يقينهم، فالبلاء ماهو إلا امتحان يجب اجتيازه بقوة وتسليم لا باسترخاء وتسخُّط على القدر.

❁ وعن أم العلاء - وهي من المبايعات - قالت: دعاني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال:

«يا أم العلاء أبشري فإن مرض المسلم يُذهب الله به خطاياه كما تُذهب النار خبث الحديد والفضة»(٣)

---

(١) خرجه ابن حبان.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه النسائي.

❁ وقد قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - صحابي رسول الله ﷺ: إني أحُب من الدنيا ثلاثة: الفقر والمرض والموت.

فسُئل عن سبب حبه لهذه الأشياء فقال: بالفقر يرق قلبي، وبالمرض يُغفر ذنبي، وبالموت ألقى ربي»[١] حقًا ما أحوجنا إلى الصبر الجميل والرضا بقضاء الله وقدره فينا!

الحكمة الثانية : محبة الله للعبد :

ومن أعظم حِكَم الابتلاء فوز العبد الصابر على البلاء بمحبة الله عز وجل له وهي أسمى الغايات التي يسعى إليها العبد أن يحظى بمحبة الله تعالى

❁ فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال: إني أحبُ فلانًا فأحبه فيحبه جبريل - عليه السلام- ثم ينادي من السماء فيقول: إنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. . .»[٢] فما أعظمها من منَّة أن يحظى العبد بمحبة ربه عز وجل والذى يؤدى إلى هذه المنة الصبر على البلاء كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

❁ فعن أنس - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافِيَ به يوم القيامة» وقال ﷺ: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومَنْ سخط فله السخط»[٣]

فالبلاء لأهل الإيمان والرضا علامة ودليل على محبة الله تعالى لهم وقربهم

---

(١) رواه البيهقى.
(٢) صحيح الإمام البخارى وصحيح الإمام مسلم ومسند الإمام الجليل أحمد بن حنبل.
(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

منه سبحانه وتعالى.

ولله دَر القائل(١)

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويعظم في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم

حقًّا أخي الكريم ما أعظمها من منَّة أن تحظى بمحبة الله تعالى!

❋ الحكمة الثالثة: تمحيص القلوب:

من الحِكَم العظيمة للابتلاء تمحيص القلوب والنفوس للتعرف والكشف عن طيبها أو زيفها.. فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل وهذه الصلة لا بد أن تخضع للابتلاء

❋ قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

يقول الشيخ «سيد قطب» رحمه الله - فى ظلاله حول تفسير هذه الآيات:

إنَّ الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرها خالصة قلوبهم كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوى وله دلالته وظله وإيحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية في ميزان الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) مدارج السالكين. لابن القيم ج٢ ص: ١٢٤ .

[العنكبوت: ٣] والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنَّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم.

وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

ونعود إلى سُنَّة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين(١)

❁ الحكمة الرابعة : حُسن الثواب في الآخرة :

من الحكم العظيمة للابتلاء حُسن الثواب فى الآخرة وذلك بدخول الجنة والفوز برضوان الله تعالى.

❁ عن أنس رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إنَّ الله عز وجل قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة»(٢) والمقصود بحبيبتيه: عينيه.

❁ وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس - رضي الله عنهما-:

ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟

فقلتُ: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إنى أصرعُ وإني أتكشف فادع الله تعالى لي.

قال: «إن شئت صبرت ولك الجنةُ، وإن شئت دعوتُ الله تعالى أن يُعافيك

---

(١) فى ظلال القرآن ج٥ ص/ ٢٧٢ .

(٢) رواه البخارى.

فقالت: أَصبرُ. فقالت: إني أتكشف فادعُ الله ألا أتكشفُ فدعا لها»[١]

❁ وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[٢] صفيه: حبيبه. فما أعظم الجزاء الذي أعده الله تعالى وادخره لأولئك المعانين الصابرين إنه يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل:

❁ يقول الرسول الكريم ﷺ :

«يود أهل العافية يوم القيامة، حين يُعْطَى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض»[٣]

فهنيئًا ثم هنيئًا لمن صبر على البلاء في الدنيا لينال حسن الثواب في الآخرة.

❁ الحكمة الخامسة : الدعوة للعمل الصالح:

من حكم البلاء العظيمة أيضًا الدعوة إلى العمل الصالح، ومخافة الله رب العالمين وتقواه في السر والعلن.

❁ قال الله تعالى: - ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

وحول تفسير هذه الآيات يتحدث الشيخ: سيد قطب - رحمه الله تعالى - في ظلاله موضحًا هذه الحكمة العظيمة للابتلاء فيقول:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرُ﴾:

هذه التسبيحة من مطلع السورة توحي بزيادة بركة الله ومضاعفتها، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة.

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه الترمذى.

وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية، وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ويعمر بها قلب كل موجود. وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم، من الكتاب المكنون، إلى الكون المعلوم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ . . فهو المالك له، المهيمن عليه، القابض على ناصيته، المتصرف فيه. . وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير، وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف فى هذا الملك بلا شريك كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد والسيد الفريد، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء ولا يفوته شيء ولا يحول دون إرادته شيء، ولا يحد مشيئته شيء. يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود وهى حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال!

فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أية حال. . والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار. فيتوقعون من قدرة الله كل شىء بلا حدود. . ويكلون لقدرة الله كل شيء بلا قيود. وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ ومن آثاره تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته: أنه خلق الموت والحياة. والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها. والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة. وكلها من

خلق الله كما تقرر هذه الآية التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني، وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء. فليست المسألة مصادفة بلا تدبير. وليست كذلك جزافًا بلا غاية؛ إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض، واستحقاقهم للجزاء على العمل: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾. واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبدًا يقظًا حذرًا متلفتًا واعيًا للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر. ولا يدعه يغفل أو يلهو. كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح. ومن ثم يجيء التعقيب: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾. ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه. فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح. فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن (ج٦ ص ٣٦٣١/ ٣٦٣٢) ط دار الشروق.

ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله

وبعد أن تحدثنا عن بعض حكم الابتلاء من الكتاب والسُّنة.. اعلم أخي الحبيب - رحمني الله وإياك - أنه ما أعطيَ أحد عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر.. فالصبر ضياء يضيء الطريق لأهل البلاء.

❁ فعن أبي مالك الحارث بْنِ عاصم الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الطهور شَطْرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأ الميزانَ، وسبحانَ الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بينَ السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهانٌ، والصبر ضياءٌ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كُلُّ النَّاسِ يَغدُو، فبائعٌ نَفْسَهُ، فمعتقها أو موبقُها»(١)

والصبر خير كله فما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر.

❁ فعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنَان الخُدْريِّ - رضي الله عنه - أنَّ ناسًا من الأنصارِ سألوا رسولَ الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نَفِدَ ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكن من خيرٍ فلن أدَّخِرَهُ عنكم، ومن يستعفف يُعفَّه الله، ومن يستَغْنِ يُغنِه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعطى أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر»(٢)

والمؤمن الصابر المحتسب أمره كله عجب ولا يكون ذلك إلا للمؤمن.

❁ فعن أبي يحى صُهيب بن سنانٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمنِ إنَّ أمَرهُ كُلَّهُ له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ شكر فكان خيرًا لَهُ، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له»(٣)

---

(١) أخرجه مسلم (باب الطهارة/ ٢٢٣/ عبد الباقي).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٤٦٩/ فتح) ومسلم (الزكاة/ ١٠٥٣/ عبد الباقي).
(٣) أخرجه مسلم (الزهد/ ٢٩٩٩/ عبد الباقي).

وكما قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: الصبر على ثلاثة أنواع:

صبر على طاعة الله.

وصبر عن معصية الله.

وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى

❁ فعن أنس رضي الله عنه: مَرَّ النبي ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبر فقال: «اتقي الله واصبري» فقالت: فقالت: إليك عني، فإنك لم تُصَب بمصيبتي. ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوَّابين، وقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١)

والمؤمن الصابر المحتسب الذي يستقبل قضاء الله بالرضا والصبر الجميل يُكتب له أجر شهيد.

❁ فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها سألت النبي ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذابًا يبعثه الله تعالى على مَنْ يشاء فجعله تعالى الله رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يُصيبُهُ إلا ما كَتَبَ اللهُ لَهُ، إلا كان له مِثْلُ أجر شهيد»(٢) والصبر شيمة الأتقياء وخلق الأنبياء.

❁ فعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومُهُ فأدْمَوْهُ وهو يمسحُ الدَّم عن وجِهِه، وهو يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون»(٣)

❁ وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أيضًا أنه قال: لما كان يوم حُنينٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٨٣/ فتح) ومسلم (الجنائز/ ٩٢٦/ عبدالباقي).
(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٧٣٤/ فتح).
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٤٧٦/ فتح) ومسلم (جهاد/ ١٧٩٢/ عبد الباقي).

آثر رسولُ الله ﷺ ناسًا في القسمة: فأعطى الأقرعَ بن حابس مائةً من الإبل، وأعْطَى عيينة بنَ حِصنٍ مِثلَ ذلك، وأَعْطَى ناسًا من أشراف العرب وآثرهُم يومئذٍ في القسمة. فقال رجُلٌ: والله إنَّ هذه قسمةٌ ما عُدِلَ فيها، وما أريد فيها وجهُ الله، فقُلتُ: والله لأُخْبِرَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ فأتيتُهُ فأخبرتُهُ بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصِّرفِ. ثم قال: «فمَنْ يعدِلُ إذا لم يَعدِل اللهُ ورسولُهُ؟

ثم قال: يرحم اللهُ موسى قد أوذِيَ بِأكثرِ مِنْ هذا فصبر»(١) وقوله كالصِّرفِ: هو صِبغٌ أحمر.

والصبر علامة من علامات القوة والشدة.

❁ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ.

قال: «ليس الشديدُ بالصُّرَعَة إنما الشديدُ الذي يملك نفسه عند الغضب»(٢)

«والصُّرَعَة» بضم الصاد وفتح الراء، وأصله عند العرب من يصرع الناس كثيرًا.

❁ وعن سليمان بنِ صُرَد - رضي الله عنه - قال: كُنت جالسًا مع النبي - ﷺ. ورجلان يستَبان وأحَدُهما قد احْمَرَّ وجهُهُ وانتفخت أوداجُهُ. فقال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعلمُ كلمة لو قالها لَذَهَبَ عنه ما يجد، لو قال: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجدُ» فقالوا له: إنَّ النبي ﷺ قال: «تعوَّذْ باللهِ من الشيطان الرجيم»(٣)

والأوداج: ما أحاط بالعنق من العروق التى يقطعها الذابح.

❁ والصبر يؤدى إلى الثواب العميم والتزاوج من الحور العين:

❁ فعن معاذ بنِ أنس - رضي الله عنه - أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ كظم

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٥٠/ فتح) ومسلم (زكاة/ ١٠٦٢/ عبد الباقي).
(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٦١١٤) مسلم (بر / ٢٦٠٩/ عبد الباقي).
(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٦١١٥/ فتح) ومسلم (بر/ ٢٦١٠/ عبد الباقي).

غيظًا، وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله سبحانه وتعالى على رءُوس الخلائق يَوْمَ القيامَةِ حتى يُخَيِّرَهُ من الحورِ العِين ما شاءَ»[١]

والصبر وصية الصالحين لبعضهم البعض لأن فيه النجاة:

❁ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قَدِمَ عُيَيْنَة بن حِصْنٍ على منزل ابن أخيه الحُر بن قيس، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمَر - رضي الله عنه - وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجلس عمر - رضي الله عنه - ومشاوَرَتِهِ كُهولًا كانوا أو شبانًا فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخي لك وجْهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن فأذن له عمر، فلمَّا دخل قال: هِي يابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجَزْلَ، ولا تحكم فينا بالعدْل. فغضب عمر - رضي الله عنه- حتى همَّ أن يوقِعَ به فقال له الحُرُّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها، وكان وقافًا عند كتاب الله تعالى». [٢]

❁ وعن أبي يحيى أُسيدِ بن حُضير - رضي الله عنه - أن رجلًا من الأنصار قال: يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانًا وفلانًا؟

فقال: « إنكم ستلقوْن بعدي أَثَرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». [٣]

والصبر سبب من أسباب العزة والنصر:

❁ فعن إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - أنَّ رسول الله ﷺ في بَعضِ أيامه التي لقِيَ فيها العَدُوَّ انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال:

---

(١) الترمذي (٤/ ٢٠٢١) وقال حديث حسن. ورواه أبو داود.
(٢) البخاري (٨/ ٤٦٤٢/ فتح).
(٣) البخاري (٧/ ٣٧٩٢/ فتح) ومسلم (إمارة/ ١٨٤٥/ عبد الباقي).

«يأيها الناس لا تتمنوا لِقَاءَ العدُوِّ، واسألوا اللهَ العافِيَةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجَنَّة تَحْتَ ظلالِ السيوف» ثم قال النبي ﷺ: «اللهم مُنْزِلَ الكتاب، ومُجْرِيَ السحاب، وهازِمَ الأحزاب، اهزمهم وانصُرنا عليهم»(١)

فهنيئا ثم هنيئًا لمن تحلى بالصبر الجميل؛ لأن سنة الابتلاء سنة ماضية وباقية في المؤمنين دون تخلف.. وإنما ذكر الرسول ﷺ فيما خرجه الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يارسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟

قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(٢)

والمقصود بالأمثل فالأمثل: الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة في الدين والفضل، وإنما كان أكثر الناس بلاءً - أي محنة - لتتضاعف أجورهم وتتكامل فضائلهم ويظهر للناس صبرهم ورضاهم فيقتدى بهم، ثم من بعدهم الأمثل فالأمثل من جهة شدة البلاء الذي يتعرضون له؛ لأن البلاء في مقابلة النعمة: فمن كانت نعمة الله عليه أكثر فبلاؤه أشد، فهم - أي الأمثل فالأمثل - معرضون للمحن والمصائب وطروق المنغصات والمتاعب ويشمل ذلك كل ما يتأذى به الإنسان من أذى مادي أو معنوي فيبتلى الرجل على حسب دينه، أي على مقدار دينه أي بقدر قوة إيمانه وشدة يقينه.(٣)

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٩٦٥/ فتح) ومسلم (جهاد/ ١٧٤٢/ عبد الباقي).
(٢) جامع الترمذي ج ٧ ص ٧٨: ٧٩ .
(٣) السنن الإلهية للدكتور عبد الكريم زيدان ص: ٨٩ .

الفصل الثاني
أنبياء الله والابتلاء

قال الله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

* * *

الفصل الثاني

أنبياء الله والابتلاء

الأنبياء والرسل هم صفوة خلق الله، وأكمل البشر أخلاقًا.. كان لهم أوفر الحظ من الابتلاء كيف لا وهم القدوة؟!

ابتلاهم الله تعالى ليستخرج أنواع العبوديات من قلوبهم لله عز وجل.. كانوا أشد الناس بلاءً.. فقد سُئل رسول الله ﷺ:

أي الناس أشد بلاءً؟

قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل

يبتلى الناس على قدر دينهم.

فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه. وإنَّ الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»[1]

وذلك لأن أنبياء الله تعالى أفضل البشر همة وعلى قدر الهمة يكون الابتلاء.

وأفضل البشر عزيمة وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم. وأفضل البشر عشقًا لمنهج الله تعالى وتنفيذًا لأوامره.. واجتنابًا لنواهيه؛ فكان التكليف بالنسبة لهم ما دام من الله - عز وجل - فهو تشريف وتكريم.

لذلك اشتد عليهم البلاء وضربوا أروع الأمثلة للرضا والصبر على قضاء الله وقدره.

لم يكن فزعهم إلا لله عز وجل.. وتوكلهم عليه سبحانه فانتصبت أقدامهم بين يديه.. وتضرعت أيديهم وقلوبهم إليه.. لدفع ما بهم من ضر وكشف ما

---

(١) أخرجه ابن حبان

بهم من هَمٍّ أو غمٍّ وألحوا في الطلب فاستجاب لهم ربهم ونجاهم من كل كرب وذلك لأن من صبر على قرع الباب فتح له.. فبالصبر والإلحاح في الطلب يأتي الفرج وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وقال أيضًا:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ٩ - ١٢].

والآن..

هيا بنا نقضي لحظات مضيئة مع أنبياء الله والابتلاء.. لأن في قصصهم عبرة وآية.

وسوف نقف خاشعين خاضعين متواضعين أمام كوكبة من أنبياء الله تعالى لنرى هديهم في استقبال الابتلاء.. وحالهم مع الله عز وجل.. وركونهم إلى ربهم عز وجل ليفرج ما بهم من كرب وهم.. فالله هو الطبيب الذي يملك غفران الذنوب.. وستر العيوب.. فهو علَّام الغيوب.

عند ما مرض الصديق أبو بكر قالت له إحدى بناته:

ألا ندعو لك الطبيب؟

قال: لقد جاءني الطبيب.

قالت: ماذا قال لك؟

قال: قال لي: إني فَعَّال لما أريد.

والآن مع كوكبة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

* * *

مع نبي الله نوح عليه السلام

نوح عليه السلام نبي كريم.. ورسول من أولي العزم.. ولبنة مضيئة في بناء أنبياء الله سبحانه وتعالى.. قضى أعوامًا مديدة.. وأزمنة عديدة في دعوة قومه إلى توحيد الله الواحد الأحد بلغت ألف سنة إلا خمسين.. فلم يجد إلا السخرية والعناد من قومه الضالين المضلين.. إنه جهد مُضْنٍ.. وعناد مرهق.. سلك كل طريق للدعوة.. دعا قومه ليلًا ونهارًا دعاهم سرًّا وعلانية فماذا كانت النتيجة؟!

اسمع إلى القرآن الكريم وهو يخبرنا عن هذا العناد المرهق فيقول الله تعالى في سورة نوح:-

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا....﴾ [نوح: ٥-٢٣].

إنه ابتلاء عجيب وصبر أعجب.. وحصيلة مريرة.

فماذا فعل نوح عليه السلام؟!

وإلى مَنْ توجه؟!

لجأ نوح إلى الله وتوجه إليه وبث شكواه إلى الله.. وهذه الشكوى لم تكن عن ضجر ولا عن يأس وإنما كانت تنفيسًا عن قلبه المتعب الحزين، وإبراءً

لذمته أمام ربه عز وجل إذ لم يدخر جهدًا في دعوة قومه وهدايتهم.

وبعد أن عرض شكواه على النحو المفصل في سورة نوح - كما ذكرنا من قبل - دعا عليهم بالعذاب الذي طلبوه واستعجلوه

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

فاستجاب الله له، وأمره أن يصنع الفلك ويكف عن مخاطبته سبحانه في شأنهم فإنهم هالكون لا محالة فقال تعالى:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٦-٣٧].

فاتخذ نوح - عليه السلام - مكانًا قاصيًا عن المدينة وأعد الألواح والمسامير وأخذ يعمل، ولكنه لم ينج من سخرية القوم واستهزائهم وهذا نوع آخر من الابتلاء.. فاكتفى نوح عليه السلام بقوله كما حكى القرآن عنه:

﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

واستمر نوح عليه السلام في صنع السفينة حتى أحكم بناءَها وأتقن صنعها وانتظر ما يكون من أمر الله تعالى، فأوحى إليه أنه إذا جاء أمرنا وظهرت آياتنا فاعمد إلى سفينتك، وخذ من آمن من قومك وأهلك واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يبلغ الأمر مداه.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وفوران التنور كناية عن اشتداد الأمر واستحكام الخطر، والتنور هو ما يخبز فيه.

فعند ما حان الوقت نَفَّذَ نوح ما أمره به الله فكان العون وكانت النجاة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩-١٦].

وسارت السفينة الضعيفة وسط موج كالجبال، تسبح فى عباب الماء بقدرة الله وعنايته، فبحسن التوكل وجميل الثناء على الله عز وجل وخالص الدعاء يكون الأمان وتكون النجاة ويستتب الأمر للمؤمنين بعد أن يُهلِكَ الله عدوهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩].

وأطل نوح عليه السلام برأسه ليرى مصارع القوم فأبصر من بينهم ولده - كنعان - يقاوم الأمواج وتقاومه، وكانت شقوة الله قد غلبت عليه فاعتزل أباه ورغب عن دينه والتحق بأمه؛ فناداه مستعطفًا أن يركب معه السفينة لينجو بنفسه، وكرر النداء مرة بعد مرة لعل نداءَه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن، أو يلمس ناحية الشعور فيه فيذعن، ولكن هذا النداء المتكرر لم يصل إلى شغاف قلبه، بل لم يتجاوز أذنيه، فقال في عناد وصلف وغرور: سآوى إلى جبل مرتفع شاهق يعصمني من الماء، ولم يعلم هذا المغرور الأثيم أنه لا عاصم له من أمر الله ولا مهرب من قضائِه وقدره، فغالبته الأمواج، وحالت بينه وبين أبيه فلم يعد يرى كل منهما الآخر فكان من المغرقين - وهذا أيضًا لون من ألوان الابتلاء التي تعرض لها النبي الكريم نوح عليه السلام - قال الله تعالى: -

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

ولما حال الموج بين نوح وولده كنعان، استبد به الحزن واشتد عليه الكرب، وغالبه حنان وعطف الأبوة، فاستغاث بربه لينقذ فلذة كبده وثمرة فؤاده من الغرق المحقق لعلمه أنه القادر على كل شيء وقد ظنَّ أن ولده من أهله الذين وعده الله نجاتهم، فأخبره الله عزوجل أن الكفر قد حال بينهما وأن كلمة العذاب قد حقت على ولده فلا مهرب له منها، وأن شفاعته له لا محل لها.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

عندها استغفر نوح ربه واستغاث به سبحانه من غضبه عليه

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ولما قضى الله ماهو كائن وأتم إغراق القوم الظالمين، أمر السماء أن تقلع عن إنزال الماء، وأمر الأرض أن تغيب الماء في أعماقها، لتعود الحياة عليها كما كانت قبل الطوفان في جو آخر يسود فيه الأمن والسلام، ويعبد المؤمنون فيه ربهم مخلصين له الدين يرجون رحمته ويخافون عذابه

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وهبط نوح بسلام على هذا الجبل بأمر الله عز وجل، وخرج هو ومن معه إلى الفضاء الواسع الفسيح، يستنشقون نسيم الحرية، ويتفرغون لعمارة الأرض من جديد بعد أن غسلها الطوفان وطهرها من الشرك.

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وهكذا يثمر الصبر النجاة.. فبعد المحن تأتي المِنَح من الله عز وجل

السميع البصير القريب المجيب.. العليم الحكيم .. القائل في محكم التنزيل:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وحفظ الله سبحانه لنوح عليه السلام ذكراه العطرة في كل أمة من العالمين، فكل مؤمن يذكره يسلم عليه تحية له وتعظيمًا لمكانته فهو الأب الثاني للبشرية وهو أول من دعا إلى الله على بصيرة، وتعرض للأذى من قومه في سبيل دعوته، وهو من أولي العزم، وأصحاب الهمم العالية والأخلاق السامية، وهو المثل الأعلى لغيره من الأنبياء والمرسلين(١)

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٨١].

* * *

(١) كتاب قصص القرآن لمحمد بكر إسماعيل بتصرف.

مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

والآن أفسحوا الطريق يارجال للنبي العاشق لمنهج الله.. للنبي الذي منحه القرآن وسام الوفاء فقال الله تعالى فيه:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] للنبي الذي وصفه القرآن بأنَّه كان أمة قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] للنبي الذي وصفه الله بالحلم وكمال العقل ورجاحة الرأي وغزارة العلم وسعة الصدر

فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] للنبي الذي منحه الله العقل الرشيد والفطرة النقية والقلب الكبير والضمير الحى على معرفة الله والاتجاه إليه وهو لم يزل من مطلع شبابه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

أفسحوا الطريق للنبي الذي اتخذه ربه خليلًا فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

النبي العاشق لتكاليف الله.. النبي الذي عَلَّمَنَا أن التكليف إذا جاء من الله فهو تكريم وتشريف.

❁ قال ابن عباس - رضي الله عنهما عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

ماقام أحدٌ بدين الله كلِّه إلَّا إبراهيم عليه السلام، قدَّم بدنه للنيران، وطعامَهُ للضيفان، وولده للقُربان.

كان صبره عليه السلام له عجب ومَنْ يصبر صبره؟! يأمره الله تبارك وتعالى بجعل ولده وزوجهِ في مكان قفر حيث لا أنيس ولا جليس ولا زرع ولا ضرع فيطيع ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء فيحكي القرآن الكريم هذا الموقف الجليل فيقول الله تعالى على لسان الخليل عليه السلام:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فاستجاب الله دعاءه وكانت بئر زمزم.

ويأمُره الله سبحانه بذبح ولده وهو الشيخ الطاعن في السِّن فيطيع.. قال الله تعالى:-

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ٩٩-١١١].

فبعد أن شبَّ إسماعيل - عليه السلام - وترعرع وصار قادرًا على العمل، يمشي مع أبيه ويشاركه آلامه وآماله، ويحمل عنه بعض متاعب الحياة، تعلق قلبه به بعض الشيء، فأراد الله تعالى أن يمحِّض قلبه لحبه ويُفرِّغه عما سواه، فأراه في المنام أن يذبح ولده، ورؤيا الأنبياء حق وصدق، فأتى إلى ولده إسماعيل فأخبره بما رأى، لا ليستشيره في أمر قضاه الله وقدَّره ولكن ليعرف رأيه ويختبر حلمه وصبره، وليهيئ نفسه لاستقبال هذه التضحية، بصدر رحب، وقلب مطمئن، فوجده يسرع إلى امتثال أمر الله تعالى إسراعًا فاق كل تصور، ويحضه على تنفيذ ما رأى دون أن يخشى عليه الجزع والهلع، ودون أن تأخذه به رأفة تجعله يعدل عن تنفيذ هذا الأمر أو يبطئ فيه، ويخبره أنه سيكون واحدًا من أولئك الصابرين الذين صبروا على البلاء مع شدته ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبًا لمرضاته؛ فسُرَّ إبراهيم عليه السلام بمقالة ولده إسماعيل وحسن بلائه وسرعته في امتثال أمر ربه فأخذ السكين وتلَّه للجبين، وأجرى السكين على عنقه فلم تؤثر فيه، وحالت قدرة الله بينها وبين ما صنعت

لأجله.

وضجت ملائكة الرحمن وأدرك الله إبراهيم برحمته، وفدى ولده إسماعيل - عليه السلام - بكبش عظيم فذبحه تحقيقًا للرؤيا وتلبية للأمر، وجعل هذا الفداء سنة متبعة في شريعة محمد عليه وعلى أنبياء الله جميعًا أفضل الصلاة وأزكى التسليم. حقًّا إنه نموذج فريد في التضحية والفداء والطاعة والانقياد لله تعالى لم نعهد مثله في الأولين والآخرين.

ومن قبل يلقى إبراهيم في النار فيصبر ويقول حسبي الله ونعم الوكيل فلما أُججت النارُ ذهبت بلطف الله حرارتها فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وسلم قلبه من كل الأغيار، وأتى ربه بقلب سليم، ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن، وكسر الأصنام غيرة لربه منها ورفع القواعد من البيت وجاء بحجر عظيم ليزيد البيت ارتفاعًا فلان الحجر تحت قدميه وصارت سنة الصلاة خلف مقامه ركعتين وأذَّن في الناس بالحج تنفيذًا لأمر الله، فكان الحج فريضة في شريعته كما هو فريضة في شريعتنا، وأراه الله مناسكه وساق الناس إلى بيته من كل مكان قريب أو بعيد، فجاءوه رجالًا - أي ماشين على أرجلهم - وركبانًا على كل ضامر - أي جمل خفيف البطن سريع السير، وجعل الله في حج البيت منافع كثيرة للناس، من أعظمها غفران الذنوب، والتقاء المسلمين من أجل التشاور فيما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٦-٢٨]... حقًّا إن إبراهيم نموذج فريد للعاشق لمنهج الله تعالى.

* * *

مع نبي الله أيوب عليه السلام

والآن أفسحوا الطريق يارجال مرة أخرى للنبي الصبور الذي ابتلاه الله تعالى بأنواع متعددة من الابتلاء فقد كان كثير المال والولد فسُلِبَ منه ذلك، وابتلي في جسده بأنواع البلاء فصبر صبرًا جميلًا حتى سار صبره مضرب الأمثال.

إنه جبل من جبال الصبر والتحمل.. إنه نموذج فريد من نوعه وكيف لا وهو من صفوة الخلق وواحد من كوكبة الأنبياء.. إنه أيوب النبي عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ماذا فعل عند ما اشتد بلاؤه؟ وإلى مَنْ توجه؟

نترك هذه التساؤلات ليجيب عنها القرآن الكريم كلام الله رب العالمين.. يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والضر هو أشد أنواع البلاء وقد فسره الله تعالى بقوله في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] والنصب: هو أشد التعب والعذاب: هو أشد الألم.. فقد مرض أيوب عليه السلام مرضًا شديدًا موجعًا لكنه غير منفر؛ لأن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة وغيرها من المناظر والعادات - كما هو معلوم من كتب العقيدة - فكيف يقال: إنه مَرِضَ مرضًا عضالًا حتى أكل الدود من جسمه ونفر منه قومه وألقوه على زبالة كانت لهم!! إنَّ هذا لمنكر من القول وزور. فهذه الحكايات لا أصل لها من الصحة فهي أخبار عن أهل الكتاب ما أنزل الله بها من سلطان وللأسف تجدها في بعض كتب التفاسير، فعند ما توجه أيوب إلى ربه عز وجل كانت الاستجابة، يقول الله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

ويبين الله تعالى في سورة (ص) الكيفية التي كشف بها ضُره فيقول: ﴿ٱرْكُضْ

بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] أي استجبنا له دعاءه فأمرناه أن يضرب الأرض برجله، فضربها فانبعثت منها عين ماء، وأشرنا عليه أن يغتسل منها ويشرب، فلما اغتسل منها وشرب برئ من أدوائه كلها، وصار سليمًا معافى كأن لم يكن به علة فكان دواؤه تحت قدميه وأقرب شيء إليه، ولكن لكل أجلٍ كتاب.

وقال تعالى:- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقال تعالى:- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

ففي كل من الآيتين إجمال وتفصيل.. فآية سورة (ص) تدل على أن الإتيان هبة من لدنه. وهبة الأهل ومثلهم معهم في العدد لا يكون إلا بأن يتزوج أيوب بنساء كثيرات فينجب من الأولاد ضعف العدد الذي مات، لا أن الله أحياهم له بعد موتهم كما يقول القصاص فهذا أمر لم ينص عليه في الآية.

ولفظ الهبة يدل على أن الموهوب شيء لم يكن بيد الموهوب له من قبل، فهو لفظ يستعمل في المنح المتجددة، كما قال جلَّ شأنه:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

وهذه القصة وصفت في سورة الأنبياء بأنها ذكرى للعابدين، ووصفت في سورة (ص) بأنها ذكرى لأولى الألباب؛ لبيان أن العابدين هم أولو الألباب، لأنهم عرفوا الله فعبدوه واستمروا في عبادته

واستمروا في طاعته مخلصين له الدين. وزادت سورة (ص) على مافي سورة الأنبياء أمرًا آخر له تعلق بالقصة وفيه بيان ليسر الدين الذي ارتضاه الله لعباده وفطرهم عليه.. فقد روي أن أيوب عليه السلام قد حلف ليضربن امرأته مائة سوط لخطأ وقعت فيه، ليس لنا أن نسأل عنه، فقال: إن شفاني الله

لأضربنك مائة سوط، فلما شفاه الله عَزَّ عليه أن يضربها، وقد زال ما به من الغضب، وأتم الله عليه النعمة، والعفو نوع من أنواع الشكر ولا سيما إذا كان العفو في محله، فجعل الله له من هذا الحرج مخرجًا، فأمره أن يأخذ حزمة من سعف النخل بها مائة سعفة فيضربها بها إبرارًا بقسمه.

قال الله تعالى:-

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

لقد أعطي أيوب عليه السلام فشكر، وابتلي فصبر، فكان مثالًا لخيار الصابرين والشاكرين.

* * *

مع نبي الله يعقوب عليه السلام

يعقوب نبي كريم من كوكبة الأنبياء الذين ضربوا لنا أعظم الأمثال في الصبر والرضا والتسليم لأمر الله، فحياته كلها عجائب ومواقف تربوية تعين الدارس لسيرته على التحلي بالصبر الجميل لأن بعد المحن تأتي المِنَح من عند الله تعالى.

فقد ابتلاه الله تعالى بفقد أحب أبنائه إلى قلبه (يوسف) عليه السلام بعد أن نزغ الشيطان بين يوسف وإخوته.. وكان يعقوب - عليه السلام - يرى أن يوسف هو قرة عينه، وثمرة فؤاده، ووارث علمه، ومجدد عهده من بعده؛ لذلك لم ينسه أبدًا؛ فكان حزنه عليه لا يكاد يخبو حتى ينفجر لأي حادثة تذكره به، فكانت صورته لا تفارق ذهنه في ليله ونهاره، فلا عجب أن يتأسف على يوسف بعد أن فقد ابنه الثاني بنيامين فيحكي القرآن قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

مع أنَّ الذي فقده في هذه المرة بنيامين، ولكن تداعي المعاني وتوارد الخواطر ذكَّرته بالفاجعة الأولى التي كان يتسلى عنها بولده (بنيامين) فلما فقده تذكر مأساته الأولى، والأسى يبعث الأسى.

فلا عجب أن يتأسف على يوسف دون بنيامين وذلك لمكانة يوسف أولًا ثم لأن بنيامين هو يعرف مكانه بمصر أما يوسف فهو المفقود الذي لا يعرف له مكانًا.

وهنا يحكي لنا القرآن حال هذا النبي الكريم فيقول:-

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

والبكاء لا ينافي الصبر، بل هو وسيلة من الوسائل التي تعين عليه؛ إذ به يُفرغ المرء ما في قلبه من أسى، ويتخلص من العقد المتراكمة على الصدر،

فيتسع وينفرج ويستريح، وقد ابيضت عينا يعقوب من الحزن فذهب سوادهما، ولم يصب بالعمى لأنه مستحيل في حق الأنبياء عليهم السلام - كما قال كثير من العلماء - ورأى أبناء يعقوب أن الحزن قد أخذ بناصية أبيهم وفت في عضده وبلغ منه الأسى والأسف على فقد يوسف وبنيامين مبلغًا قد يودي بحياته فدخلوا عليه خلوته وقالوا ما قد حكى القرآن عنهم:

﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] وهي كلمة فيها نصح له وإشفاق عليه، ولوم على تماديه في ذكر يوسف وشدة تأسفه على فراقه، وتحمل في طياتها شيئًا من كوامن الغيرة من يوسف عليه السلام.

فمع هذه الهموم وتلك الأحزان التي يعالجها الشيخ - الضعيف في جسمه، القوى في إيمانه - لم يسلم من لوم أبنائه وهم أقرب الناس إليه، وهم السبب في بلواه وشكواه، وحزنه وأساه.

وهذا نوع آخر من الابتلاء.. فإنه إذا خلا بنفسه، وجرت على لسانه كلمة يهتف فيها بيوسف عليه السلام، وسمعها أبناؤه وتحركت الغيرة في صدورهم، تناولوه بألسنتهم لومًا وتهديدًا له بالمرض الذي يستحيل البرءُ منه، أو الهلاك المحقق، مؤكدين ذلك بكثير من أنواع التوكيد، فهم يقسمون بالله على أنه يظل يذكر يوسف ويبكي على فراقه حتى يشرف على الموت، أو يموت فعلًا كمدًا وحسرة. فأي نوع من البلاء هذا؟!

حقًّا على قدر أهل العزم تأتي العزائم وكيف لا وهو أحد الكوكبة التي اصطفاها الله تعالى لهداية خلقه.

وقد قبل يعقوب عليه السلام منهم نصحهم إن كانوا حقًّا من الناصحين وشكرهم على هذا الإشفاق عليه والحرص، واعتذر إليهم عن تماديه في ذكر يوسف عليه السلام بما حكى القرآن عنه مما يُعد منهجًا قويمًا للمتوكلين

المخلصين، قال الله تعالى حاكيًا هذا الأمر: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

والبث هو: الهم والكرب الذي يغلب صاحبه فلا يتسع له صدره، فيصرح به، ويلقيه خارجه.

أي إنما أشكو إلى الله تعالى همي وحزني ضراعة وتمسكنًا لا يأسًا ولاجزعًا، وهذا نوع من أنواع العبادة لا تعلمونه مثل ما أعلمه، ومثل هذا النوع من العبادة لا ينشأ منه مرض ولا هلاك بل فيه عون على التماسك والتصبر ومواجهة المصائب العظيمة فلا تلوموني على ذلك، ولا تخشوا عليَّ منه، وكان عليكم أن تعرفوا ذلك، فإن مثلي لا يبكي هلعًا، ولا يشكو جزعًا، ولا يأتي شيئًا ينافي الصبر الجميل الذي تحليت به وسألت الله أن يعينني عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنه إذ يشكو إلى الله ما به فإنما يشكو إلى رب رحيم يُضرع إليه في الكروب، وتبسط له الأيدي في الملمات، وتتجه الوجوه إليه في الشدائد.

فلما لجأ ببثه وحزنه إلى الله الذي لا رب سواه استجاب الله له ورد إليه يوسف وأخاه لتعلم البشرية أن الصبر بالتصبر، وأن بالصبر تكون النجاة.

* * *

مع نبي الله يوسف عليه السلام

يوسف عليه السلام قمة شماء من قمم الصبر، وجبل من جبال التوكل على الله عز وجل.. تعرَّض لأنواع متعددة من الابتلاء فصبر واحتسب وتوكل على الله عز وجل فكانت نجاته.

والعجيب أن ابتلاءه كان بسبب الحب كيف ذلك؟

أحبه أبوه فألقاه إخوته في الجُب.. وأحبته امرأة العزيز فكان مصيره السجن.. فحياته كلها مواقف مؤثرة ومحن عظيمة.. فهيا بنا نقف أمام موقف من أشد المواقف ومحنة من أشد المحن التي تعرض لها هذا النبي الكريم.. إنها محنته مع امرأة العزيز .

لبث يوسف عليه السلام في بيت العزيز - الذي اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة كما حكى ذلك القرآن الكريم - زمنًا لا يجد منه ولا من زوجه إلا الحب والإجلال والتقدير، حتى سول الشيطان لامرأة العزيز أمرًا ما كان ينبغي أن يقع منها أو يصدر عنها، فقد راودته عن نفسه أكثر من مرة، وهو يأبى عليها كل الإباء، ويعتصم بالله ويستعيذ به من الوقوع فيما تدعوه إليه أو في أية مقدمة من مقدماته.

وقد بلغ بها الحب مبلغه وافتتنت بجماله، ولم تطق الصبر على بعده واعتزاله، وضاقت ذرعًا بتعففه واستعصامه، فغلَّقت الأبواب عليه وخلت به، وقد تزينت له وتوددت إليه، وصنعت كل ما في وسعها من عوامل الإغراء والفتنة، وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: ها أنا قد تهيئت لك فهلم إليَّ، فالتفت إلى السماء وهي قبلة الداعي يلتمس من الله النجاة يلتمس النجاة من أشنع عمل أنكرته الأديان السماوية، والطبائع السوية.

اتجه إلى الله وهو يعلم أنه لا قدرة لمخلوق مع قدرته، فقال لها والأسى

يملأ قلبه: معاذ الله أن أقدم على معصية الله تعالى، وأخون العزيز الذي وفقه الله لإكرام مثواي. ووعظها وعظًا بليغًا، وذكرها بعاقبة الظالمين، ولا سيما الذين يقابلون الإحسان بالإساءة، وقد عزَّ عليها أن يرفض لها طلبًا كهذا وهي ذات الحسب والمنصب والجمال، وهو منها بمنزلة الخادم، وقد أحسنت وفادته وأكرمت مثواه، فهمت بضربه أو بأن تنال منه ما تريد بالقوة والقهر، فَهَمَّ بضربها إن ضربته أو همَّ بالفرار من وجهها إن هي حاولت أن تقهره على هذا الفعل الأثيم.

وقد رأى بنور الله أن يفر من وجهها إلى الباب الخارجي، فاستبقا الباب، وأسرعت خلفه لترده إليها بالقوة، فقد أضحت بين نارين - نار الشهوة المحرقة، ونار الانتقام لنفسها - وقد قدَّت قميصه من دبر فقطعته طولا من أعلى إلى أسفل، ولكنه مضى إلى الباب ففتحه، فإذا بالعزيز عنده فرأى ما هاله وأدهشه، فأسرعت إليه تشكو يوسف قبل أن يشكوها إليه، على حد المثل القائل: «ضربني وبكى، وسبقني واشتكى»(١)

قالت: لا أرى إلا أن تسجن هذا الخائن الذي أراد بأهلك ما يريد الرجل من المرأة أو تعذبه عذابًا أليمًا يشفى الصدر ويذهب الغيظ.

فما كان من يوسف عليه السلام إلا أن وقف موقف الشهامة والرجولة وشهد لنفسه بالبراءة أمام العزيز فقال يوسف:

- هي راودتني عن نفسي، نعم هي راودتني وأنا تمنعت وتعففت، واعتصمت بالله منها ومما دعتني إليه.

فنظر العزيز في وجه يوسف عليه السلام فرأى فيه البراءة كل البراءة، وهو الرجل الخبير بما يرسم على صفحات الوجوه وما يظهر من فلتات الألسنة، وهو السياسي المحنك الذي يدرك بالنظر الثاقب أمارات الصدق وأمارات

---

(١) نقلا عن كتاب قصص القرآن لـ د: محمد بكر إسماعيل ص ١٠٧/١٠٨ .

الكذب بالبديهة التي أهلته لهذا المنصب، ولكنه مع ذلك يريد ألا يأخذ بالظن فطلب البينة منها ومنه، شأنه في ذلك شأن القاضي الذي لا يحكم إلا بالحجة القاطعة والبرهان الساطع. فتطوع شاهد من أهلها لا تستطيع امرأة العزيز أن تتهمه بمحاباة يوسف في شهادته، فأعطى العزيز أمارة من الواقع تشهد ببراءة يوسف عليه السلام مما ألصقته به تلك المرأة اللعوب، قال له: انظر إلى قميصه تعرف الصادق منهما، فإن كان القميص قد قُدَّ من قُبُلٍ فهو الذي راودها وحاول أن ينال منها السوء بالقوة والقهر وإن كان قميصه قد قُدَّ من دُبُر فهي التي راودته وحاولت أن ترده إليها حين فَرَّ منها. وهي أمارة تكشف الحقيقة كشفًا يفيد العلم ويقطع الظن.

نظر العزيز في القميص فعرف براءة يوسف، فزجر امرأته، وجعلها من عامة النساء اللاتي لايتنزهن عن الكيد والمكر، والكذب والخداع، والخيانة والغدر، حتى ولو كانت في قمة الحسب والنسب والمجد. وقد واسى يوسفَ وطيَّبَ نفسه بمعسول الكلام، وأوصاه أن يصرف النظر عما وقع له من امرأته، وأن ينسى هذه المأساة التي مر بها فسلم من شرها ومرت به فلم تزلزل له قدمًا، وأمرها أن تستغفر الله من ذنبها، وأخبرها برأيه فيها بصراحة لامواراة فيها ولاموارية أخبرها أن ماصنعته بيوسف جزء من كيد النساء وأنها من الخاطئين الذين لا يبالون بما يرتكبونه من المعاصي والجرائم في سبيل تحقيق رغباتهم الجامحة ونزواتهم الفاضحة.

وقد حكى الله تعالى هذا الجزء من المحنة بأسلوب ترى فيه الأدب في أسمى صوره وأبهى معانيه، إنك لا تشعر بأي شيء تخجل منه الطباع، أو تَمُجُّهُ الأسماع.

يقول الله عز وجل:-

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ

مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٩].

إن الله تعالى لم يذكر في هذه الآيات اسم المرأة ولا اسم زوجها سترًا عليهما، وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ يدل على تكرار الطلب وتكرار الرفض.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ يدل على أنها مع تمكنها منه وتمكنه منها لم تستطع أن تغريه بجمالها وسعة حيلتها، ولم تستطع أن تقهره على شيء قد عصمه الله منه، ولم تتمكن من أن تنال من عفته شيئًا، فقد حفظ الله عليه سمعه وبصره، وجعل هواه في طاعته ومراده فى محبته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ دليل على أنها يئست من مطاوعته فحاولت أن تحقق رغبتها منه بالقوة، وتضعه أمام الأمر الواقع.

وفي قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ [يوسف: ٢٣] دلالة على أن هذه المرأة قد فقدت توازنها فذهب حياؤها وشردت منها مروءتها، وتناست حسبها ومنصبها؛ فدعته إلى نفسها بالكلمة الصريحة التي تحمل الرجل على الإجابة طائعًا أو مكرهًا، فالمرأة مهيأة والأبواب مغلقة، ولاخيار له في الإحجام عنها، ولكنه مع ذلك تعفف واستعصم.

وفي قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على قوة عزمه على الرفض والامتناع، فهي كلمة بليغة معناها: ألوذ بالله ملاذا تامًا، واعتصم بقوته اعتصامًا شديدًا،

وألجأ إليه ليصرف عني السوء بقدرته، وقد قالها يوسف عليه السلام هنا وقالها عند ما طلب منه إخوته أن يأخذ واحدًا منهم مكان أخيه بنيامين، فقال كما حكى القرآن الكريم عنه: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

إنَّ يوسف عليه السلام كان عدلًا كما كان عفيفًا، يكره الظلم وينفر منه نفورًا تامًّا، إنه رجل قد اكتملت فيه كل صفات الفطرة فعاش بها وهي كاملة فيه حتى لقى ربه عز وجل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أقوال أرجحها وأولاها بالقبول هي: أنها هَمَّت بضربه أو بحمله على الفاحشة قسرًا وقهرًا، وهمَّ هو بضربها أو الفرار من وجهها، فكان همها همَّ إقدام وكان هَمُّهُ هَمَّ إحجام.

والبرهان الذي رآه يوسف هو نور عقلي جعله يختار الفرار من وجهها؛ لأنه مأمون العواقب، وليس كما قال المخرفون أنه رأى جبريل يعض على إصبعه، أو رأى أباه يعض على إصبعه يقول: لا تفعل إنك نبي.

فقد قال يوسف في نفسه: لو ضربتها ما سلمت من لمسها وكشف شيء من جسمها، وأنا لا يجوز لي أن أضربها وعفتي تأبى عليَّ ذلك، ولا أنسى ما لها عليَّ من فضل، ولا آمن على نفسي إن ضربتها من معاقبة العزيز أو غضبه عَليَّ، وما إلى ذلك من عواقب الأمور، فهداه نظره الصائب إلى أن يفر من وجهها استبراءً لدينه وعرضه؛ ولهذا قال الله عز وجل:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فالسوء الذي صرفه عنه هو مقدمات الفحشاء المباشرة وغير المباشرة، وقد شهد له بالإخلاص التام فنفى عنه كل شبهة، وبرأه من كل زيغ وانحراف.

والشاهد الذي من أهلها لم يكن طفلًا صغيرًا كما قال بعض المفسرين لأن الله سماه شاهدًا، والشاهد لا بد أن يكون بالغًا عاقلًا قد رأى وسمع حتى

يؤدى الشهادة على وجهها، هذه هي حقيقة الشاهد في الشرع، فإذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة فلماذا نحمله على المجاز؟ أو من أين لنا أن الشاهد كان طفلًا صغيرًا؟ إنني لم أجد حديثًا مرفوعًا إلى النبي ﷺ فى ذلك

ولو كان طفلًا صغيرًا ما كان لقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ معنى لأن شهادة الطفل الصغير الذي لا قدرة له على الكلام والفهم معجزة سواء كان هذا الطفل من أهلها أو من غير أهلها، لكنه قال من أهلها ليدل على أنه رجل يريد إحقاق الحق ولا يحابي أحدًا، ولا يخاف من أحد. وما قاله الشاهد لون من ألوان الطب الشرعي الذي يأخذ بالقرائن والملابسات ليصل إلى مرتكب الحادثة بالأدلة اليقينية. فلم يكن هذا الشاهد شاهدًا وكفى، ولكنه كان شاهدًا وحكيمًا عرف كيف يقنع العزيز أن زوجه هي المخطئة الآثمة.

إنه شاهد قد اجتمعت له خصائص الشاهد والحكيم، والقاضي الخبير بما تنطوي عليه النفوس، وما تستلزمه هذه الأحداث من الحيل التي تؤدي حتمًا إلى الهدف المقصود، وهو إظهار الحق وإزهاق الباطل.

ومن حكمة الشاهد: أنه لم يقطع بأنها هي التي راودته عن نفسه لأنه لم يدر ما وقع فى غياهب القصر مع علمه بالأمارة. إنها هي المتهمة فعلًا، ولو أقر بذلك صراحة لكان قاذفًا، ولكان وقع كلامه على العزيز قاسيًا ولاستطاعت المرأة أن تصده عن شهادته هذه بطرق كثيرة وحيل شتى، فتقع الخصومة بينها وبينه، بل بينه وبين العزيز أيضًا؛ لأن الصراحة المجردة في مثل هذه الأمور يعز على النفوس سماعها فضلًا عن قبولها والاقتناع بها. فرأى الشاهد أن يعطي العزيز أمارة يعرف بها الحقيقة بنفسه ولا يسعه إلا أن يتقبلها ولو على مضض، ليتصرف بعد ذلك في الأمر بحسب ما يمليه عليه ضميره وتدفعه إليه فطنته.

وكان العزيز رجلًا حكيمًا أيضًا، ولم يكن بارد المشاعر لا يغار على أهله - كما يقول بعض الناس - إنه كان رجلًا عاقلًا يقدر عواقب الأمور، فهو يعلم أنه لو أعطى الأمر أكثر مما حكاه القرآن عنه لأضر بمنصبه، وأساء إلى مملكته، وأساء إلى نفسه في عرضه، وشمت فيه أعداؤه وقال فيه الناس ما لا ينبغي أن يقال وما دام متيقنا من أمانة يوسف وعفته، فلماذا يعطي الأمر أكثر من ذلك؟!

ولكن امرأة العزيز لم تقتنع بهذا، بل عزَّ عليها أن تقابل بمثل هذا الاستعلاء ممن هو بمثابة الخادم لها. فانتقلت في معاملته إلى أسلوب آخر، هو أسلوب التهديد والوعيد، وساعدها على ذلك لين جانب زوجها معها، فتمادت في غيها، وانقادت لهواها وكشفت قناع الحياء أمام النسوة اللاتى عذرنها فى حبها لفتاها حينما خرج يوسف عليهن، فخاطبتهن بقولها:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ومن هذا القول الذي حكاه القرآن عنها - نرى أنها أسقطت زوجها من حسابها، وصرحت بأنها هي صاحبة الأمر والنهي بالنسبة للحكم على يوسف - عليه السلام - وأن أمر سجنه أو تعذيبه أو إذلاله خاضع لسلطانها وإرادتها، فإذا لم يفعل ما تأمره به - أيًا كان هذا الأمر - فسيكون مصيره السجن والهوان.

وهنا لجأ يوسف إلى ربه يدعوه رغبًا ورهبًا، ويلتمس منه الحماية والرعاية والصيانة من الوقوع فى المحارم فيقول:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فلما لجأ إلى ربه واستعان بخالقه أجاب الله دعاءه وفرَّج كربه كما قال سبحانه:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

فبالعقيدة الراسخة والصبر الجميل أجاب الله دعاءه وحقق مسألته.

* * *

مع نبي الله يونس بن متى عليه السلام

يونس بن متى - عليه السلام - نبي كريم من أنبياء الله عز وجل. . وهو من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إلى أهل«نينوى» بأرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به؛ فغضب منهم غضبًا شديدًا، وظن أنهم لم يؤمنوا به أبدًا فخرج من «نينوى» متوجهًا إلى ساحل البحر وركب سفينة، فحملته إلى وسط البحر ومعه خلق كثير، فإذا بالريح تهب عليهم من كل صوب وحدب، والسفينة تتأرجح وتضطرب، وظن أهلها أنه قد أحيط بهم، فأرادوا أن يتخففوا منها بإلقاء واحد منهم في البحر، فإذا سكنت الريح وهدأت سفينتهم فبها، وإلا ألقوا رجلًا آخر وهكذا، فطرحوا السهام على مَنْ يبدءون بإلقائه، فخرج السهم على يونس عليه السلام الذي ظن أن الله تعالى لن يضيق عليه بمحاصرته في السفينة وسجنه في بطن الحوت ورده إلى بلده مرة أخرى للقاء هؤلاء الذين أغضبهم وأغضبوه.

فعند ما خرج السهم على يونس عليه السلام ألقوه فى اليم، فأمر الله حوتًا أن يلتقمه، ويحفظه في بطنه، ولا يؤذيه، فالتقمه الحوت، وهو ملوم من قبل أصحاب السفينة لأنهم كانوا يعتقدون - على ما قيل - أن السفينة إن اضطربت في البحر، كان اضطرابها بسبب عبد آبق من سيده وقيل لما طرحوا السهام وخرج السهم عليه ضنوا به لما رأوا على وجهه من السماحة والوجاهة، فأعادوا طرح السهام ثلاث مرات، وفي كل مرة يخرج السهم عليه، فألقوه بعد أن لاموه على هروبه من سيده، ولم يعلموا أنه حر طليق.

ولبث يونس في بطن الحوت ما شاء الله أن يلبث وهو نوع من البلاء الشديد، فلما علم أنه كان مخطئًا عند خروجه من بلده «نينوي» وتركه الموطن الذي أمره الله أن يجاهد فيه، ولكن يجب أن نعلم أن يونس قد فر من قدر الله إلى قدر الله تعالى وقد أخطأ في الاجتهاد وخطؤه في الاجتهاد لا يعدو أن

يكون قد أتى بما يخالف الأَوْلى، فالأنبياء يجتهدون في الأمور التي لم ينزل بها وحي فإن أخطئوا فى الاجتهاد لا يترتب على خطئهم تحريم حلال ولا إحلال حرام، وبالتالي لا يكون خطؤهم من قبيل الخطيئة الموجبة للذم، فكل خطيئة خطأ وليس كل خطأ خطيئة.

وقد خرج يونس باجتهاده من قرية إلى قرية أخرى لعله يجد فيها من يؤمن به، ويستجيب لدعوته، فكان عقابه على خطأ وقع فيه، وخطؤه من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

عند ذلك تاب يونس وأناب وسبح بحمد ربه وأثنى عليه بما هو أهله فعند ما لجأ إلى ربه وجده سبحانه وتعالى سميعًا قريبًا مجيبًا فاستجاب دعاءه ونجاه وأعاده إلى قومه فوجدهم قد آمنوا عن بكرة أبيهم.. ويحكى القرآن لنا هذه الأحداث العظيمة، فقال الله تعالى في سورة (الصافات):-

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

وقال تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـْٔجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

فلما ابتهل يونس إلى الله استجاب له، ونجاه من الغم والكرب العظيم.

* * *

مع الحبيب محمد ﷺ

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: بهذا الاسم الكريم تنطلق ملايين الشفاه، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز منذ عشرين وأربعمائة وألف سنة تقريبًا، وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين. فإذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهاب الموذن بالناس أن الصلاة خير من النوم، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجليين في مطلع كل نهار. وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر، ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء. وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمدًا عبد الله ونبيه ورسوله في ضراعة وخشية وإنابة، وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسعون اسمه حتى تَجِفَ قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه. كذلك كانوا وسيكونون حتى يُظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين (١)

مع النبي الأسوة، ومع النبي القدوة، النبي الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق، مع نبي الرحمة ونبي الملحمة، مع النبي الذي تعرض لشتى أنواع الابتلاء من أجل الدعوة فصبر صبرًا جميلًا وهجر أعداءه هجرًا جميلًا، مع سيد ولد آدم ولا فخر مع أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولافخر، مع صاحب المقام المحمود والحوض المورود، ومع صاحب لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ومع قائد الغر الميامين ولا فخر، مع الرسول الذي تعجز الكلمات أن تصف منزلته أو قدره؛ لأن من أراد ذلك فعليه الإحاطة الكاملة بالقرآن وهذا الأمر صعب المنال، فقد كان الرسول ﷺ خلقه القرآن.

---

(١) نقلا عن كتاب «حياة محمد» للدكتور: محمد حسين هيكل ص: ١٩ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مع النبي الذي أرسله الله على حين فترة من الرسل، فهدى به من بعد الضلالة، وعلَّم به من بعد الجهالة، وعرف به من بعد النكارة، جمع به بين قلوب متفرقة، وأهواء متشتتة، فتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوب غلفا، مع النبي الأُمي الذي علم المتعلمين مع الحبيب المصطفى محمد لحظات مضيئة نتعرف على بعض جوانب عظمته في مجال الصبر والتحمل وخاصة وهو إمامنا ومعلمنا وقدوتنا فقد قال الله تعالى:- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهيا بنا في خشوع وخضوع نتلمس بعض جوانب هذه العظمة.

❁ أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد (رضي الله عنه) أنه دخل على رسول الله - ﷺ وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ماأشد حمَّاك يا رسول الله! قال: إنا كذلك يُشدد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر، ثم قال: يارسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء. قال: ثم مَنْ؟ قال: العلماء. قال: ثم مَنْ؟ قال: الصالحون، كان أحدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء»[(١)]

❁ وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: كنا عند النبي - ﷺ - فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيًا لها في الموت، فقال للرسول: ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت رضي الله عنهم ورجال، وانطلقتُ معهم، فُرفع إلى رسول الله الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة[(٢)]

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤) رقم (٤٠٢٤) وهو حديث صحيح.

(٢) تقعقع: أى تتحرك وتضطرب، والشنة: هى القربة البالية.

ففاضت عيناه ﷺ فقال له سعد: ما هذا يارسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)]

وانظر أخي الحبيب رحمني الله وإياك إلى ما لاقاه نبُيك من أذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل.

❁ فقد خرّج البخارى[(٢)] عن عروة رضي الله عنه قال: سألت ابن العاص رضي الله عنه - فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يصلى في حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي مُعيَط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر - رضي الله عنه - حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]

وفي بداية الدعوة إلى الله عز وجل في مرحلة الجهر بالدعوة بعد أن ظل النبي ﷺ يدعو سرًا لمدة ثلاث سنوات في دار الأرقم بن أبي الأرقم في هذه المرحلة الجديدة - مرحلة الجهر بالدعوة - ازداد حَنَقُ المشركين على المسلمين، وبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. ورأى النبي ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم، فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة فقال لهم - بأبي هو وأمي - : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكًا لا يُظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه» وقبل المسلمون العرض الكريم، فخرجوا من مكة فرارًا بدينهم، يريدون بلاد النجاشي. وظل النبي ﷺ بمكة يدعو إلى توحيد الله تعالى والإيمان به، فقامت قريش باتخاذ إجراء انتقام ظالم جائر، ما كان لها أن تتخذه لولا ما أصابها من خيبة أمل في الصد عن سبيل الله ومنع النبي ﷺ من دعوته إلى الله، هذا الإجراء هو كتابة مقاطعة ضد بني هاشم وبني عبد

---

(١) رواه البخارى (٥/ ٢١٤١) حديث (٥٣٣١) وأبو داود (٣/ ١٩٣) حديث (٣١٢٥) وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٠٤) حديث (٢١٨٢٤).

(٢) البخارى (٣/ ١٤٠٠) حديث (٣٦٤٣).

المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، وفعلًا كتبوا صحيفة بذلك وعلقوها في جوف الكعبة تأكيدًا لأمرهم بذلك.

وكتب الصحيفة «منصور بن عكرمة بن عامر» فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده.

وظلت هذه المقاطعة لمدة ثلاث سنوات عانوا فيها الجوع والحرمان مالا يخطر ببال، إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر، وكان يُسمع - من بعيد - بكاء أطفالهم من الجوع إلى أن أمر الله الأرضة أن تأكل ما بالصحيفة عدا اسمه تعالى«باسمك اللهم» وأخبر النبي بذلك فلما رأوا صدق ما قاله النبي ﷺ قام بعض العقلاء منهم بتمزيقها وإنهاء المقاطعة.

وبعد انفراج تلك الأزمة الخانقة بالحصار فى شعب أبي طالب التي دامت ثلاث سنوات تقريباً - حتى رزئ ﷺ بأعظم رزء، إنه وفاة أبي طالب العم الكافل والطود الأشم المانع، والأسد الحامي والحصن الواقي، ووفاة السيدة الفاضلة أم المؤمنين خديجة، ومَنْ هي خديجة؟ إنها الملاذ بعد الله، والأنيس بعد ذكره، إنها كانت تؤمنه إذا خاف، وتؤنسه إذا استوحش، تُريحُهُ بعذوبة حديثها إذا تعب، وتسدده بصائب رأيها إذا قلق أو اضطرب. وبعد أن فقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمه أبا طالب - الذي كان عضده القوى، وحماه المنيع بعد الله، خرج إلى الطائف يطلب ناصرًا من ثقيف ينصره على قومه، ويعينه على إبلاغ دعوته خرج وهو راجٍ أن يَقْبل أهل الطائف منه ما جاءهم به من الله عز وجل.

ولما وصل الطائف، قصد ثلاثة أنفار من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافها وهم الإخوة الثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود وحبيب، وكان عند أحدهم امرأة من قريش، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلمهم فيما جاءهم من نصرته والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه، فقال

أحدهم هو يمرط[١] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!! وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!!

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدًا، لئن كنت رسول الله ﷺ كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردَّ عليك ولئن كنت تكذبُ على الله ما ينبغي أن أكلمك!!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف، وقد طلب إلى الإخوة الثلاثة ألا يذكروا ما دار بينهم لقريش، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عَقِبَيْه، وألجئوه إلى حائط «بستان» لابْنَيْ ربيعة شيبة وعتبة، وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب، فجلس تحتها مستظلا بها، فلما اطمأن وسكنت نفسه لجأ إلى الله وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي إلى مَنْ تكلني، إلى بعيد يتجهمني[٢] أمْ إلى عدو ملكتَه أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يَحِلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضي ولاحول ولا قوة إلا بك»

وتحركت عاطفة القرابة في قلوب ابني ربيعة فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يدعى «عداسًا» وقالا له: خذ قطفا من العنب واذهب به إلى الرجل.

فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مدَّ يده إليه قائلًا: باسم الله.. ثم أكل.

---

(١) يمرط ثياب الكعبة: أى ينزعها ويلقيها بعيدًا عنها، وهو إثم ولكنه تكذيب وسخرية للرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) يعبس فى وجهى. نقلًا عن كتاب هذا الحبيب لأبي بكر الجزائري

فقال «عداس» إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة!

فقال له النبي ﷺ: من أي البلاد أنت؟!

قال: أنا نصرانيّ من «نينوى». فقال رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يدريك ما يونس؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخي كان نبيًا وأنا نبيٌّ. فأكب «عداس» على يدي رسول الله ﷺ ورجليه يقبلهما.

فقال ابنا ربيعة، أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاء «عداس» قالا له:

ويحك ما هذا؟ قال: ما في الأرض خير من هذا الرجل»[1]

وانصرف رسول الله ﷺ عائدًا من الطائف بعد أن أيس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة - مكان بين مكة والطائف - قام من جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجنّ الذين ذكرهم الله في سورة (الأحقاف) في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩] وهم من جنّ نصيبين - مدينة بالشام - وكانوا سبعة نفر وحملوا رسالة الله تعالى إلى قومهم منذرين.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله تحملت الكثير والكثير بثبات وصبر جميل.. وإقبال على ربك عزوجل.. فاستجاب لك.

❋ عن عروة أن عائشة - رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ:

هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما

---

(١) أخرج هذه القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٢: ١٦٠) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظى مرسلًا وأما طلب الرسول ألا يذكروا ما دار بينهم لقريش، والدعاء... إلخ فقد ذكره بدون سند وهو ضعيف.

لقيت، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال:

إنْ الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»(١)

وبعد هذه الأحزان المتلاحقة والآلام المتعددة كانت رحلة الإسراء والمعراج والتي كانت بمثابة منحة بعد محنة كانت مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان. فقربه الله وأدناه، وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن وألم ونصب وتعب، وما قد يلاقيه فى سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون وما غفل عن ذكره الغافلون وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٥-٨].

* * *

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٦٠) بدء الخلق، ومسلم (١٢/ ١٥٥، ١٥٤) الجهاد.

الفصل الثالث

نماذج للسلف الصالح

من الصحابة والتابعين والابتلاء

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

* * *

مع السلف الصالح رضي الله عنهم

وبعد أن تطوفنا مع كوكبة من أنبياء الله تعالى، فلعله من المناسب أن نتريض رياضة سريعة في تاريخ سلفنا الصالح لنقطتف منه بعض الأمثلة لأناس رفعوا أكف الضراعة إلى الله بلسان خاشع، وقلب مطمئن، فحقق الله تعالى لهم دعاءهم، وأجاب سؤالهم.

* * *

مع الصحابي الجليل

«النعمان بن مقرن» رضي الله عنه وأرضاه

لقد كان «النعمان بن مقرن» في عهد «عمر بن الخطاب» واليًا على بلدة يقال لها «كسكر» [١] والولاية منصب تتطلع إليه أكثر النفوس البشرية، وربما بذلت في سبيل الحصول عليه ما يتعارض مع تعاليم الشريعة[٢]. ولكن «النعمان» - رضي الله عنه - ضاق بهذا المنصب، واحتقر ما يحيط به من جاه ونفوذ، وأرسل إلى الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - رسالة يقول فيها: «يا أمير المؤمنين، إن مثلي ومثل الولاية التي أنا فيها كمثل شاب عند امرأة جميلة تراوده عن نفسه لكي يرتكب معها الفاحشة وهو ممتنع من ذلك، وإني أناشدك الله يا أمير المؤمنين أن تعزلني عن هذه الرياسة وأن ترسلني في جيش من جيوش المسلمين لأقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله...»

وأخيرًا وبعد أن ألح النعمان في طلبه أكثر من مرة - استجاب «عمر» لمطلبه فأعفاه من ولاية «كسكر» وأرسله قائدًا لجيش المسلمين في إحدى المعارك التي دارت بينهم وبين الفرس.

---

(١) كسكر: بلدة على الشاطئ الغربي من دجلة بين بغداد والبصرة.
(٢) نقلًا عن كتاب «الدعاء» للدكتور: محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر.

وقبل أن تبدأ المعركة جمع« النعمانُ» جنده وقال لهم:

إني سأهز الراية ثلاث مرات، في المرة الأولى عليكم أن تقضوا حوائجكم وأن تجددوا وضوءكم، وفي المرة الثانية عليكم أن تهيئوا أنفسكم وتجردوا سيوفكم للقتال في سبيل الله، وفي المرة الثالثة عليكم أن تهاجموا أعداءكم وأن تغلظوا عليهم.

ثم قال لهم: وإني سأدعو الله بدعوة فأمنوا عليها، ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

«اللهم ارزق المسلمين نصرًا من عندك في هذه المعركة واجعلني من بين شهدائها» ودارت المعركة عنيفة رهيبة بين المسلمين والفرس، ثم انتهت بانتصار المسلمين واستجاب الله دعاء قائدها «النعمان» - رضي الله عنه - فرزقه الشهادة بعد أن أبلى بلاء حسنًا في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يمر عليه أحد جند المسلمين وهو الصحابي الجليل «معقل بن يسار» فيراه مخضبًا بدمائه فينظر إليه القائد المسلم«النعمان» فيقول له : من أنت؟ فيقول: أنا معقل بن يسار، فيقول له: ما نتيجة المعركة؟ فيقول: الحمد لله نصر الله جند الاسلام. فأشار البطل بأصبعه السبابة إلى السماء وقال: الحمد لله الذي أعز الاسلام والمسلمين يا معقل اكتب بذلك إلى أمير المؤمنين«عمر» ثم فاضت الروح الكريمة إلى خالقها.

لقد توفر في دعاء «النعمان» كل أسباب القبول من إخلاص النية وشرف المقصد، وزهد في متع الدنيا وزينتها وحسن اختيار الوقت، فقد دعا الله عند زحف الصفوف في سبيل الله وهو وقت تفتح فيه أبواب السماء، ولذا أجاب الله دعوته، وحقق له أمنيته، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

مع الصحابي الجليل
«سعد بن أبي وقاص» رضي الله عنه وأرضاه

إنه خال رسول الله ﷺ وكان مجاب الدعوة فقد تجنى عليه رجل من أهل الكوفة، واتهمه بتهم باطلة وهذا نوع من الابتلاء الشديد فدعا عليه «سعد» - رضي الله عنه - فأجاب الله دعوته.

❋ أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنهما - قال: «شكا أهل الكوفة«سعد بن أبي وقاص» إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنهما - حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ لا أخرم عنها - أي لا أنقص عنها - أصلي صلاتي العشاء فأركد[1] في الأوليين، وأخف في الأخريين. فقال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق. ثم أرسل معه رجلًا - أو رجالًا - إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة فلم يترك مسجدًا إلا سأل عنه ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبني عبس فقام رجل منهم يقال له: «أسامة بن قتادة» يكنى «أبا سعدة»، فقال: أما إذ نشدتنا - أي طلبت منا الشهادة - فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية[2] ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياءً وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن.

فكان - المدعو عليه - بعد ذلك إذا سئل يقول:

شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة «سعد». قال عبد الملك بن عمير الراوي

---

(١) فأركد: أى أقوم فيهما قيامًا طويلًا.
(٢) السرية: القطعة من الجيش ومراده أنه لا يسير معها.

عن جابر بن سمرة: «فأنا رأيته بعد أن سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري فى الطريق فيغمزهن»

وهكذا استجاب الله لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - لأنه قد اتهم ظلمًا بما هو منه براءٌ، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

* * *

مع الصحابي الجليل «سعيد بن زيد» رضي الله عنه وأرضاه

❁ أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - «أن سعيد بن زيد» خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم وادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها.

فقال سعيد: أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ...؟!

فقال له مروان: وماذا سمعت من رسول الله ﷺ؟

فقال سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بينة بعد هذا.

فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها.

قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت.

❁ وفي رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: «أنه رآها عمياء تلتمس الجدر فتقول: أصابتني دعوة سعيد: وأنها مرت على بئر في الدار التي خاصمته فيها فوقعت فيها فكانت قبرها»

فانظر رحمني الله وإياك إلى ما تعرض له هذا الصحابي من ابتلاء شديد في أمانته وشرفه ولكنه لجأ إلى الله بالدعاء فوجد الله سميعًا قريبًا مجيبًا واستجاب دعاءه.

* * *

مع الصحابي الجليل «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» رضي الله تعالى عنه وأرضاه

ما أعظمه من صحابي صادق اللهجة وكامل الإيمان أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا، وكان من الذين قدموا الغالي والنفيس من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة رسول الله ﷺ. . فهيا بنا نتعرف على ملخص قصته كما جاءت في سيرة ابن هشام - رضي الله عنه[1]:

وملخص القصة أن وفد«عضل والقارة» جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله «إن فينا إسلامًا وإيمانًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ. معهم ستة رجال من أصحابه.

وعند ما وصلوا إلى الرجيع - وهو ماء لهذيل ناحية الحجاز - غدر وفد «عضل والقارة» بهؤلاء الصحابة، واستغاثوا بقبيلة هذيل لتعينهم على غدرهم وبغيهم، والتفت الصحابة فوجدوا عشرات من الغادرين قد أحاطوا بهم، فلما استلوا سيوفهم ليقاتلوهم قالوا لهم: إنا والله مانريد قتلكم ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم.

فقال «عاصم»: «والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولاعقدًا أبدًا» ودار القتال عنيفًا بين جمع غفير من المشركين الغادرين وبين عدد قليل من المسلمين، وعند ما رأى «عاصم» أن منيته قد اقتربت رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحم لي جسدي آخر نهاري» ثم نال الشهادة بعد أن قاتل الغادرين قتال الأبطال.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٦٠ طبعة المكتبة التجارية تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد.

قال ابن إسحاق: «وكان عاصم قد أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا» وكان - رضي الله عنه - من الذين أبلوا بلاءً حسنًا في غزوة «أحُد» ومن بين الذي أصابهم من قريش «مسافح بن طلحة» الذي جرى بعد إصابته إلى أمه «سلافة بنت سعد» وهو يتخبط في دمه، فقالت له: من أصابك يا بني؟ فقال: سمعت رجلًا حينما رماني يقول: خذها وأنا عاصم بن أبي الأقلح. فنذرت لئن تمكنت من رأس عاصم لتشربن فيه الخمر.

ورآها الغادرون من هذيل فرصة لفصل رأس عاصم عن جسده وبيعها لتلك المرأة الموتورة. وتقدموا نحو جسده لينفذوا جريمتهم ولكن الله الذي تكفل بإجابة دعاء عباده الصالحين، أرسل جندًا من عنده - وما يعلم جنود ربك إلا هو - لحماية جسد عاصم، أرسل سبحانه وتعالى جماعة من النحل أحاطت بجثمانه وحالت بين الغادرين وبين ما يشتهون، فقالوا: دعوه حتى يأتي المساء، وينصرف عنه هذا النحل فنأتي لنأخذ الرأس.

ولكن عند ما أتي المساء بعث الله - تعالى - الرياح فاحتملت جسده إلى مكان لا يعلمه سوي علام الغيوب، ولم يعثر الغادرون له على أثر.

وهكذا استجاب الله - تعالى - دعوة عاصم، فحمى له جسده فى آخر النهار؛ لأن عاصمًا حمى له دينه في أول النهار. وكان «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - عند ما يتذكر قصة عاصم يقول: «يحفظ الله العبد المؤمن». كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع في حياته.

* * *

مع الصحابية الجليلة السيدة «خولة بنت ثعلبة» رضي الله تعالى عنها وأرضاها

قصتها قصة عجيبة وغريبة.. إنها نموذج فريد من نوعه نزلت بشأنها آيات بينات من الذكر الحكيم تعالج قضيتها وقضية كل مسلمة تتعرض لمثل ظروفها إلى يوم القيامة.. وملخص قصتها أنها كانت متزوجة من ابن عمها «أوس بن الصامت» وفي يوم من الأيام حصل بينها وبينه نزاع، فقال لها:

أنتِ عليَّ كظهر أمي، وبعد فترة أراد أن يقربها فامتنعت منه وقالت له: كلا والذي نفسي بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابًا ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت من زوجي وجعلت أشكو إليه من سوء خلقه.

قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول:

«ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه»[(١)]

قالت: فسألت النبي ﷺ عما قاله زوجي.

فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»[(٢)]

قالت: فقلت له: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقا وأخذت أراجعه وفي كل مرة يقول ﷺ «حرمت عليه».

قالت: فقلت: إلى الله أشكو فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني»

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٩ .

(٢) قال لها النبي «حرمت عليه» لأن حكم الظهار لم يكن قد شرع بعد .

ثم لجأت إلى الله تعالى ورفعت المرأة الطاهرة يديها إلى السماء وقالت: «اللهم إنك تعلم أن زوجي شيخ كبير، وأنا امرأة عجوز، ولا غنى له عني، ولا غنى لي عنه، وإن لي منه أولادًا إن تركتهم معه ضاعوا، وإن أخذتهم معي جاعوا، الله ففرج كربتي واحلل عقدتي».

وصعدت تلك الدعوات الخاشعات من تلك المرأة الطاهرة إلى السماء، وأجاب الله دعوتها قبل أن تقوم من مكانها بجانب النبي ﷺ فقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ ليبين حكم الظهار بقول الله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١-٤].

أرأيت كيف استجاب الله دعاء هذه المرأة الطاهرة المخلصة الحريصة على كرامة زوجها وأولادها فأنزل الله سبحانه - قبل أن تقوم من مكانها - قرآنا يتلى فيه حل قضيتها وقضية كل مسلمة تتعرض لمثل ظروفها إلى يوم القيامة.

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، وإني لأسمع كلام «خولة بنت ثعلبة» ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ فتقول: يا رسول الله: أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ولقد كان لهذه الحادثة أثرها في ارتفاع منزلة «خولة» - رضي الله عنها -

في أعين الصحابة.

لقد مر بها «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - وهو أمير المؤمنين، ومعه بعض الصحابة، فاستوقفته طويلًا ووعظته فقالت «يا عمر قد كنت تدعى عميرًا ثم قيل لك: يا عمر ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر فإنه مَنْ أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العقاب»

وهو واقف يسمع كلامها. فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟

فقال: «والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لما تركتها إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ إنها «خولة بنت ثعلبة»

سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر»[١]

حقًا لقد سمع الله قولها، وأجاب سؤلها، وحل قضيتها؛ لأنها تضرعت إليه بقلب سليم، ونفس مطمئنة.

* * *

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٧٠ .

مع إمام أهل السُّنة والجماعة
الإمام «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه

نموذج فريد من نوعه، جبل من جبال الصبر، فارس من فرسان كلمة الحق والثبات عليها، إنه الإمام الجليل - إمام أهل السنة والجماعة - «أحمد بن حنبل» لقد أُخِذَ أحمد بن حنبل في محنة خلْق القرآن أيام «المأمون» ليُحمل إلى المأمون ببلاد الروم، وأُخِذَ معه أيضًا «محمد بن نوح» مقيدين، ومات «المأمون» قبل أن يلقاه «أحمد» فَرُدَّ «أحمد بن حنبل» و«محمد بن نوح» في أقيادهما، فمات «محمد بن نوح» في الطريق، ورُدَّ «أحمد بن حنبل» إلى بغداد مقيدًا.

ودخل على الإمام «أحمد بن حنبل» بعضُ حُفاظ أهل الحديث بالرقة وهو محبوس، فجعلوا يُذاكرونه ما يروى في التقية من الأحاديث، فقال «أحمد»: وكيف تصنعون بحديث خبّاب: «إنَّ من كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار، ثم لا يصدُّه عن دينه»؟! فيئسوا منه. قال «أحمد»: لستُ أبالي بالحبس؛ ما هو ومنزلي إلا واحد، ولا قتلًا بالسيف، إنّما أخاف فتنة السوْط، وأخاف ألا أصبر، فسمعَه بعضُ أهل الحبس وهو يقول ذلك، فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلّا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي، فكأنه سُرِّى عنه. وظل الإمام «أحمد» في السجن إلى أن امتحنه «المعتصم».

ولما أمر «المعتصم» بحمل «أحمد» إليه - وكان قد سجنوه في رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، في دار إسحاق بن إبراهيم - دخل عليه إسحاق، فقال: يا أحمد، إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنَّه قد آلى إنْ لم تجبه أن يضربك ضربًا بعد ضربٍ، وأن يُلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس، وجيء إلى أحمد بدابة، فحُمل عليها وعليه الأقياد، وكاد غير مرَّة أن يخرّ على وجهه؛ لثقل القيود، فجيءَ به إلى دار المعتصم، وأدخلوه في حجرة،

وأدخلوه إلى بيت، وأقفل الباب عليه، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سِراج، فلما كان الغد، أخرجوه إلى الخليفة ليناظره «أحمد بن أبي دؤاد»، و«المعتصم» يقول: والله لئن أجابني لأُطلقن عنه بيدي، ولأركبنّ إليه بجندي، ولأطأن عقبه، ثم قال: يا أحمد، واللهِ إني عليك لشفيقٌ، وإني لأُشفق عليك كشفقتي على هارون ابني، ما تقول؟

فقال: أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله. ومرةً أخرى يقول «المعتصم» «لأحمد»: ما كنت تعرف صالحًا الرشيدي؟ قال أحمد: قد سمعتُ باسمه. قال: كان مُؤدِّبي، وكان في ذلك الموضع جالسًا - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألتُه عن القرآن فخالفني، فأمرتُ به فوُطِئ وسُحِبَ.

وبعد ثلاثة أيام من المناظرة والإمام «أحمد» يُفحم المبتدِعة، قال المعتصم: العقابين والسياط. فجيء بهم.

قال إبراهيم البوشنجي: ذكروا أن المعتصم رقَّ في أمر «أحمد» لما عُلق في العقابين، ورأى ثبوته، وتصميمه، وصلابته في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد، وقال له: إنْ تركتَه قيل: إنك تركتَ مذهب المأمون وسخِطت قوله. فهاجه ذلك على ضربه. قال صالح: «قال أبي: لمّا جِيء بالسياط، نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها. فأُتي بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا. فجعل يتقدم إليَّ الرجُل فيضربني سوطيْن فيقول له - يعني المعتصم -: شُدَّ قطع الله يدك! ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطيْن، وهو في كل ذلك يقول لهم: شدُّوا قطع الله أيديكم، فلما ضُربت تسعة عشر سوطًا، قام إليَّ - يعني المعتصم - فقال: يا أحمد علامَ تقتل نفسك؟! إني والله عليك شفيق، فجعل عُجيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم. وجعل عبد الرحمن يقول: ويحك يا أحمد! من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟! قال: وجعل المعتصم يقول: ويحك يا أحمد! أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج، حتى

أُطلِق عنك بيدي. قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل، أو سنة رسوله حتى أقول به. قال: فرجع فجلس، فقال للجلّادين: تقدموا.

فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: شُدَّ، قطع الله يدك. قال أبي: فذهب عقلي، فأفقتُ بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أُطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر إننا كببناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناك. قال أبي: فما شعرتُ بذلك، وأتوْني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ. فقلتُ: لستُ أُفطر.

ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلّى، فلما انفتل من الصلاة، قال لي: صليتَ والدم يسيل في ثوبك؟! فقلتُ: قد صلى عمر وجُرحه يثعب دمًا»[1] ثم خُلي عنه فصار إلى منزله بعد أن مكث في السجن ثمانيةً وعشرين شهرًا.

يرحم الله إمام أهل السنة، لله دَرُّه ودرّ أمٌ أنجبته، لقد كاد أن يكون إمامًا وهو في بطنها!!

وصدق الإمام الشافعي إذ قال: «أسَدُّ الأعمال ثلاثة:

الجودُ من قِلة، والوَرَع في خلْوة، وكلمة الحقِّ عند من يُرجى ويُخاف»

* * *

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٤٠٥: ٢٠٧. نقلًا عن كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور سيد بن حسين العفاني ج ٤/ ٤٠٩: ٤١٢ بتصرف.

مع التابعي الجليل«سعيد بن جبير»
رضي الله عنه وأرضاه

سعيد بن جبير - رضي الله عنه - من عظماء التابعين الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ابتُلى بالحجاج بن يوسف الثقفي الذي أسرف في الظلم والفجور فكان «سعيد» ينهى الحجاج عن الظلم والبطش، وكان ينصح الناس بمخالفته وبالوقوف في وجهه.. وضاق الحجاج ذرعًا بتصرفات «سعيد» - رضي الله عنه - فاستدعاه ودارت بينهما مناقشة طويلة تدل على قوة إيمان «سعيد» وصدق يقينه، وثبات جنانه وشجاعته في الحق.

قال الحجاج لسعيد: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

الحجاج: أنت الشقى بن كسير؟

سعيد: أبي كان أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقيت وشقي أبوك.

سعيد: الغيب يعلمه الله.

الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى.

سعيد: لو علمت أنك كذلك لاتخذتك إلهًا.

الحجاج: ما رأيك في علي بن أبي طالب أهو في الجنة أو في النار؟

سعيد: لو دخلتها وعلمت من فيها لعرفت أهلها ولكني ما زلت في دار الفناء.

الحجاج: ما رأيك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم وكيلًا.

الحجاج: أيهم أحب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضاهم لله؟

سعيد: علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: لماذا لا تضحك كما نضحك؟

سعيد: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار.

الحجاج: ولكن نحن نضحك.

سعيد: لأن القلوب لم تستو بعد.

الحجاج: اختر لنفسك قتلة أقتلك بها.

سعيد: اختر لنفسك أنت يا حجاج. فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

الحجاج: أتحب أن أعفو عنك؟

سعيد: إن كان العفو فمن الله.

الحجاج لجنده: اذهبوا به فاقتلوه.

سعيد يضحك وهو يتأهب للخروج مع جند الحجاج.

الحجاج: لماذا تضحك؟

سعيد: لأني عجبت من جرأتك على الله ومن حلم الله عليك.

الحجاج: اقتلوه.. اقتلوه.

سعيد: إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين.

الحجاج: وجهوا وجهه إلى غير القبلة.

سعيد: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

الحجاج: كبوه على وجهه.

سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

الحجاج: اذبحوه.

سعيد: أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

ثم رفع يديه إلى السماء وقال: خذها مني يا عدو الله حتى نتلاقى يوم الحساب:

«اللهم اقصم أجله، ولا تسلطه على أحد يقتله من بعدي» وصعدت دعوة سعيد إلى السماء فلقيت قبولًا واستجابة من الله الواحد القهار، فلقد أصيب الحجاج بعد قتله لسعيد بن جبير بمرض عضال أفقده عقله وصار كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وكان كلما أفاق من مرضه قال بذعر: ما لي ولسعيد بن جبير؟!

وبعد فترة قصيرة من قتل سعيد بن جبير مات الحجاج الثقفي شر ميتة، وتحققت دعوة سعيد فيه، فلم يسلطه الله على أحد يقتله من بعده.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[1]

* * *

(١) رواه الترمذي بسند حسن.

الفصل الرابع

قصة وعبرة، قصيدة

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]

قصة وعبرة

قال ابن القيم[١] - رحمه الله :-

قَدِمَ «عروة بن الزبير» - رضي الله عنه - على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه «محمد»، وكان من أحسن الناس وجهًا، فدخل يومًا على «الوليد» في ثياب وشي، وله غديرتان وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش. فعانه[٢] فخرج من عنده متوسّنًا، فوقع في إصطبل الدوابّ، فلم تزل الدوابُّ تطؤه بأرجلها حتى مات، ثم إنَّ الأكلة وقعت في رجل «عروة»، فبعث إليه «الوليدُ» الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها، سَرَتْ إلى باقي الجسد فتهلك. فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة، فغُشي عليه، ثم أفاق والعَرَق يتحدَّر على وجهه وهو يهلل ويكبِّر، فأخذها وجعل يقبلها في يده ثم قال:

«أما والذي حملني عليكِ، إنه ليعلم أني ما مشَيْتُ بكِ إلى حرام، ولا إلى معصية، ولا إلى ما لا يُرضي الله. ثم أمر بها فغُسِّلت وُطيِّبَتْ وكفِّنتْ في قطيفة، ثم بُعِثَ بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند «الوليد» المدينة تلقاه أهلُ بيته وأصدقاؤه يُعَزّونه فجعل يقول:

---

(١) عدة الصابرين ص ٩١: ٩٢ .

(٢) أى أصابه بعينه، حسَدهُ.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] ولم يزد عليه.

قال ابن القيم: «ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئًا كي لا تشعر بالوجع.

فقال: إنما ابتلاني الله ليَرى صبري أفأعارض أمَرهُ؟!

إنْ سلبت فلطالما أعطيت، وإن أخذت فطالما أبقيت، وأبقيت لنا فيك الأمل، يا برُّ يا وصول.

اللهم كان لي أربعة أبناء فأخذت واحدًا وتركت لي ثلاثة فلك الحمد على ما أخذت ولك الحمد على ما أبقيت، وكان لي أربعة أطراف فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد على ما أخذت ولك الحمد على ما أبقيت.

* * *

قصيدة

للإمام «علي بن أبي طالب»[١]

رضي الله عنه ينصح ولده فيقول:

تردَّ رداءَ الصبر عند النوائب ... تَنَلْ من جميل الصبر حسن العَواقب
وكُنْ صاحبًا للحلم في كلِّ مشهَدٍ ... فما الحلم إلا خير خدنٍ وصاحب
وكُنْ حافظًا عهد الصدِّيق وراعيًا ... تذُقْ مِن كَمال الحِفظِ صَفْوَ المشاربِ
وكُنْ شاكرًا لله في كلِّ نِعمةٍ ... يثبْك على النُّعمى جزيلَ المواهب
وما المرءُ إلَّا حيث يجعلُ نَفْسهُ ... فكُنْ طالبًا في الناس أعلى الْمَراتب
وكُنْ طالبًا للرزقِ من باب حِلِّهِ ... يُضَاعَفْ عليك الرزق من كل جانب
وصن منك ماء الوجه لا تبذلنَّه ... ولا تسأل الأرذال فَضْلَ الرغائبِ
وكُنْ موجبًا حق الصديق إذا أتى ... إليك ببرٍّ صادقٍ منك واجب
وكُنْ حافِظًا للوالدين وناصرًا ... لجارك ذي التقوى وأهل التقارب

* * *

أحسينُ إني واعظُ ومؤدبٌ ... فافهم فأنت العاقل المتأدبُ
واحفظ وصية والد متحنن ... يغذوك بالآداب كي لا تُعْطبُ
أبني إن الرزق مكفول به ... فعليك بالإجمال فيما تطلُبُ
لاتجعلن المال كسبك مفردًا ... وتُقى إلهك فاجعلن ما تكسِبُ
كفلَ الإله برزقِ كل بريةٍ ... والمالُ عاريةٌ تجيءُ وتذهبُ
والرزقُ أسرعُ من تَلَفُّتِ ناظر ... سببًا إلى الإنسانِ حين يسببُ
ومن السيول إلى مقر قرارِها ... والطير للأوكار حين تصوبُ
أبني إنَّ الذكر فيه مواعظٌ ... فمن الذي بعظاته يتأدب
فاقرأ كتابَ اللهِ جَهْدَكَ واتْلُهُ ... فيمن يقوم به هناك وينصب
بتفكرٍ وتخشع وتقرب ... إنَّ المقرَّب عنده المتقربُ

---

(١) ديوان الإمام على للأستاذ نعيم زرزور ص: ٢١ - ص: ٣٦: ٣٧.

واعبد إلهك ذا المعارج مخلصًا ... وانصت إلى الأمثال فيما تُضربُ
وإذا مررتَ بآيةٍ وعظيَّة ... تصف العذابَ فقفْ ودمعك يُسكبُ
يا من يعذِّب من يشاءُ بعدله ... لاتجعلني في الذين تُعذِّب
إنّى أبوءُ بعثرتي وخطيئتي ... هربًا إليك وليس دونك مهربُ
وإذا مررتَ بآية في ذكرها ... وصف الوسيلة والنعيم المعجبُ
فاسأل إلهك بالإنابة مخلصًا ... دار الخلود سؤالَ مَنْ يتقَربُ
واجهد لعلك أن تحلَّ بأرضها ... وتنالَ روح مساكن لا تخربُ
وتنال عيشًا لا انقطاع لوقته ... وتنال ملك كرامةٍ لا تسلبُ
بادر هواك إذا هممت بصالح ... خوف الغوالب أن تجيء وتغلبُ
وإذا همت بسيئ فاغمض له ... وتجنب الأمر الذي يتجنب
واخفض جناحك للصديق وكن له ... كأب على أولاده يتحدبُ
والضيف أكرم ما استطعت جوَارَه ... حتى يعدَّك وارثًا يتنسبُ
واجعل صديقك من إذا آخيته ... حفظ الإخاء وكان دونك يضرب
واطلبهم طلب المريض شفاءه ... ودع الكذوب فليس ممن يصحب
واحفظ صديقك في المواطن كلها ... وعليك بالمرءِ الذي لا يكذبُ
واقْل الكذوب وقربَه وجواره ... إنَ الكذوبَ ملطخ مَنْ يصحبُ
يعطيك ما فوق المنى بلسانه ... ويروغُ منك كما يروغ الثعلبُ
واحذر ذوى الملق اللئام فإنهم ... في النائبات عليك ممن يخطب
يسعون حول المرء ما طمعوا به ... وإذا نبا دهرٌ جفوا وتغيبوا
ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... والنصح أرخص ما يُباع ويُوهبُ

* * *

فهرس المراجع

* تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
* تفسير القرطبي.
* في ظلال القرآن لسيد قطب.
* مدارج السالكين لابن القيم.
* عُدة الصابرين لابن القيم.
* الفوائد لابن القيم.
* صحيح البخاري.
* صحيح مسلم.
* سُنن النسائي.
* مسند الإمام أحمد.
* السنن الإلهية للدكتور عبد الكريم زيدان.
* خُلق المسلم لمحمد الغزالي.
* فقه السيرة لمحمد الغزالي.
* هذا الحبيب محمد يا محب لأبي بكر جابر الجزائري.
* وقفات تربوية مع السيرة النبوية لأحمد فريد.
* رسالة «الثبات حتى الممات» لمحمد حسان.
* إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم.
* قصص القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل.
* الدعاء للدكتور محمد سيد طنطاوي.
* حياة الصحابة للكاندهلوي.
* سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي.
* صلاح الأمة في علو الهمة للدكتور سيد حسين العفاني.

* * *

فهرس المحتويات

المقدمة ٣
الفصل الأول حكمة الابتلاء ٨
الفصل الثاني: أنبياء الله والابتلاء ٢٣
مع نبي الله نوح عليه السلام ٢٥
مع خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ٣٠
مع نبي الله أيوب عليه السلام ٣٣
مع نبي الله يعقوب عليه السلام ٣٦
مع نبي الله يوسف عليه السلام ٣٩
مع نبي الله يونس بن متى عليه السلام ٤٧
مع الحبيب محمد ﷺ ٤٩
الفصل الثالث: نماذج للسلف الصالح ٥٦
مع الصحابي الجليل: «النعمان بن مقرن» ٥٧
مع الصحابي الجليل: «سعد بن أبي وقاص» ٥٩
مع الصحابي الجليل «سعيد بن زيد» ٦١
مع الصحابي الجليل «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» ٦٢
مع الصحابية الجليلة السيدة «خولة بنت ثعلبة» ٦٤
مع إمام أهل السُّنة والجماعة: الإمام «أحمد بن حنبل» ٦٧
مع التابعي الجليل«سعيد بن جبير» ٧٠
الفصل الرابع: قصة وعبرة، قصيدة ٧٣
قصة وعبرة ٧٣
قصيدة: للإمام «علي بن أبي طالب» ٧٥
فهرس المراجع ٧٧
فهرس المحتويات ٧٩